التّقدّم الغربيّ وتبدّد الوعد العظيم

طلال عتريسي*

يُنقل عن الشّيخ محمّد عبده (1849-1905)، الذي عدّه كثيرون من روّاد الإصلاح ومن دعاة النّهضة ورموزها في نهايات القرن التّاسع عشر، أنّه قال جملة شهيرة بعد زيارته باريس في العام 1884: «رأيت إسلاماً ولم أرَ مسلمين»، في حين «رأى في مصر مسلمين ولم يرَ إسلامًا». وقد ذهبت هذه الجملة التي قالها محمّد عبده مثلًا عند كلّ تأكيد على تقدّم الغرب وتخلّف المسلمين.

لا شكّ في أنّ محمّد عبده قارن بين ما رآه في باريس من نظام ونظافة طرقات، ومن إشارات مرور، وتطوّر في وسائل النّقل والخدمات الإداريّة والحرّيّات الفرديّة، مع ما كانت عليه الحال من تخلّف واستبداد في تلك الفترة في مصر. ولذلك؛ قدّر أنّ ما عاينه في فرنسا هو ما يريده الإسلام ويحضّ عليه، مع أنّ الفرنسيّين ليسوا مسلمين، في حين أنّ الواقع في مصر، وهي من بلاد المسلمين، هو خلاف ذلك تمامًا.

لم يلتفت محمّد عبده، عندما عقد هذه المقارنة بين ما شاهده في فرنسا وواقع الحال في مصر، إلى أنّ فرنسا التي ذُهل من رُقيّها وتحضّرها وأراد تقليدها

* أستاذ علم الاجتماع، ورئيس تحرير مجلّة جامعة المعارف.

واتّباع تقدّمها، كانت عند زيارته لها قد مضى على احتلالها الجزائر، البلد المسلم الشّقيق لمصر، نحو نصف قرن تقريبًا، منذ العام 1830. وقد استمرّ هذا الاحتلال نحو مائة وثلاثين عامًا، حتّى العام 1962. ولم يلتفت عبده أيضًا إلى أنّ الثّورة الجزائريّة كانت قد اندلعت ضدّ هذا الاحتلال، علمًا أنّ فرنسا سبق واحتلّت مصر بين العامين 1798-1801؛ أي قبل ولادة محمّد عبده بنصف قرن، وقد أرادت حينها أن تجعل من مصر قاعدة استراتيجيّة ونواة للإمبراطوريّة الفرنسيّة في الشّرق، وهي التي كانت تعدّ الجزائر جوهرة في تاج الإمبراطوريّة الفرنسيّة، لا يمكن التّخلّي عنها، تمامًا كما كانت بريطانيا تعدّ الهند درّة في تاج الإمبراطوريّة البريطانيّة.

«وقد ادّعت الحكومة الفرنسيّة، آنذاك، أنّ احتلالها مصر كان من أجل حماية رعاياها وتجّارها وتأمين الرّعاية لهم، بسبب كثرة اعتداءات المماليك الموالين لإنجلترا على التّجّار الفرنسيّين واضطهادهم»[1]. وكانت فرنسا قد أصدرت مرسومًا، بعد احتلال الجزائر، أعلنت فيه للعالم أنّ الجزائر قطعة لا تتجزّأ من فرنسا. وبدوره، أنكر الرّئيس الفرنسيّ إيمانويل ماكرون وجود الجزائر خارج الحقبة الاستعماريّة؛ ذلك لأنّ «الاستعمار هو بداية تاريخ شمال أفريقيا. وقبل هذا الاحتلال لم يكن لهذه الشّعوب تاريخ»[2]!

لم يتطلّع الشّيخ محمّد عبده، عندما أشاد بمظاهر التّقدّم في فرنسا ودعا إلى الاقتداء بها والتّعلّم منها، إلى تلك العلاقة الوثيقة بين التّقدّم الغربيّ والاحتلال. لكنّ ما قاله الشّيخ قد تحوّل إلى منهج عند كثير من دعاة النّهضة العربيّة والإسلاميّة في نهاية القرن التّاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين، ممّن تتلمذوا على يديه أو تأثّروا به من مفكرين وعلماء؛ أمثال قاسم أمين وسعد زغلول وأحمد لطفي السّيد وفريد وجدي ومصطفى عبد الرّازق وطه حسين وأحمد أمين، أو من الذين رأوا في الغرب أنموذجًا للتّقدّم يجب أن يحتذى، أو ممّن أراد أن يثبت أنّ تقدّم الغرب التّقنيّ والعلميّ هو الوجه الحضاريّ والإنسانيّ الذي لا يضاهيه أنموذج. «وها هو طه حسين يطلب من الخديويّ إسماعيل أن يلحق مصر بأوروبا، لما في ذلك من النّعيم والخير لها ولأهل البلد، كما يطلب أديب إسحاق أن يدرّس

1- نبيل زكاوي، مآلات النّفوذ الفرنسيّ في إفريقيا، مركز الجزيرة للدّراسات، 25/10/ 2022.

2- Le Monde 2/10/2021.

تاريخ الثّورة الفرنسيّة في مناهج التّعليم»[1].

لا تزال إشكاليّة التّقدّم الغربيّ، إلى اليوم، موضع بحث ونقد تساؤل، خاصّة وأنّ بعض الباحثين يقتصرون في قياس التّقدّم على ما بلغه الغرب في مجالات مثل العلم والطّبّ والتّكنولوجيا، ولا يبالون بما رافق هذا التّقدّم من احتلال شعوب ونهب ثروات؛ كما كان حال فرنسا ـ على سبيل المثال ـ مع الجزائر في القرن الماضي، وكما هي حال تجارب مماثلة لدول غربيّة أخرى في القرن الحاليّ. حتّى أنّ المفكّر الفرنسيّ «إدغار موران» (Edgar Morin) صرّح «أنّ تاريخ الغرب منذ خمسة قرون كان اندفاعًا هائجًا من البربريّة الأوروبيّة، من الغزو والاستعباد والاستعمار»[2].

الاستهلاك مقياس التّقدّم

لم يكن احتلال فرنسا الجزائر حالة استثنائيّة في منتصف القرن التّاسع عشر؛ بل كان حالةً أوروبيّة غربيّة عامّة تجاه باقي العالم. كانت أوروبا في طور التّحوّل والانتقال من مراحل الإقطاع إلى بناء رأسماليّتها، وقد تقدّمت عربة الغرب الحضاريّة خلال القرنين الماضيين، بين القرن التّاسع عشر والقرن العشرين، وهي تستند إلى أربع عجلات لا تزال تقودها وتسير بها وتتّكئ عليها مجتمعة إلى اليوم، وهي:

- عجلة البحث والاكتشافات (البعد العلميّ).
- عجلة الاحتلال ونهب ثروات الشّعوب الأخرى وصعود الرّأسماليّة (البعد الاستعماريّ).
- عجلة الرّبط بين الرّفاه والمواطنة والتّحفيز على الاستهلاك (البعد الاقتصاديّ-النّفسيّ).
- عجلة الاستعلاء والتّفوّق (البعد العنصريّ).

كان من الصّعب على الغرب نفسه أن يفصل في مسيرة تقدّمه وصعوده بين هذه العجلات الأربعة، حتّى لا يختّل مسار العربة أو تتعثّر، ولا تكمل طريقها. ولم يكن تشكّل تلك الرّافعات الأربعة في أوروبا، أو العجلات التي ستقود تلك

1- محمد ألنتي، جمال الدّين الأفغاني: فيلسوف الشّرق وموقظ الإسلام، موقع الجزيرة، 26/4/2018.

2- إدغار موران، ثقافة أوروبا وبربريّتها، دار توبقال للنّشر، المغرب، 2007، ص 20.

التّجربة، والتي ستُعدّ أساس هويّة الغرب الثّقافيّة والسّياسيّة، ومُبرّر سياساته الدّاخليّة مع شعوبه والخارجيّة مع باقي العالم، سوى نتاج تحوّلات عرفتها المجتمعات الأوروبيّة طوال القرنين الماضيين.

لقد بدأت تبزغ في الحقب الأخيرة من القرن العشرين فكرة، لها أصل قديم؛ وهي فكرة سفينة فضائيّة هي الأرض، تبحر على متنها الإنسانيّة. هذه السّفينة تسير اليوم بأربعة محرّكات: العلوم، التّقنيّة، الاقتصاد والرّبح. وهذه المحرّكات ليست مراقَبة. فقد أدَّت الثّورة الصّناعيّة، والتي استمرت ما يقرب من مائة عام حتَّى منتصف التّاسع عشر، إلى توسُّع المصانع، وتنوّع السّلع وزيادة إنتاجها، بحيث باتت الحاجة ملحّة إلى أسواق جديدة خارج أوروبا في بلدان المستعمرات. وقد نتج عن اكتشاف آلة البخار، على سبيل المثال، «التي أصبحت مصدرًا مشتركًا للطّاقة في الغرب بأسره، نشوء التَّجمُّعات الصّناعيّة الكبرى. ما أدّى إلى ثورةٍ في حركة المواصلات، وإلى تراكمِ رؤوس الأموالِ، وإلى التَّوسُّع الدِّيموغرافيّ، وإلى انطلاقة مدينيَّة ضخمة»[1].

لكنّ هذه الانطلاقة المدينيّة الضخمة غيّرت في الوقت نفسه حياة النّاس. فقد شجّعت رغبة المصانع في زيادة وتيرة الإنتاج على النّزوح من الأرياف إلى المدن، للعمل في هذه المصانع. وقد ساد الاعتقاد بأنّ الحياة الحديثة في المدن ستحقّق الرّفاهيّة والسّعادة التي بشّرت بها الاكتشافات العلميّة والثّورة الصّناعيّة.

لقد تحوّل التّطوُّر في سُرعةِ إنتاج السّلع المختلفة إلى منافسةٍ حادّةٍ بين أصحاب المصانع، للوصول إلى الأسواق وإلى المستهلك، ولابتكار كلّ وسائل تحقيق الفوز والغلبة في تلك المنافسة؛ فتطوَّرت فكرة الإعلان، وتوسّعت الدِّعاية، وتنوّعت وسائلها وأساليبها في الإقناع وإثارة الرّغبة في الشّراء، وأصبحت علمًا وفنًّا وتخصُّصًا يتوجَّه إلى دراسة خُصُوصيّاتِ السِّلعة والمستهلك في آنٍ. وأصبحت «قيم الاستهلاك والمنافسة والقوّة شُغْل النّاس الجديد»[2].

كانت فكرة الرّبح هي الفكرة المركزيّة والمرجعيّة الأساس للرأسماليّة الغربيّة. وأصبح الرّبح هدف كلّ ما يتحقّق من تقدّم ومقياسه. وباتت سعادة الإنسان في

1- Histoire. M. Chaulanges. J.M. D' Hoop. Delagrave. Paris, 1979, p. 217.

2- راجع: طلال عتريسي، العلوم الإنسانيّة الغربيّة وليدة القطيعة الحداثيّة مع الدّين، مجلّة جامعة المعارف، العدد 4/ 2021.

هذه الحياة تُختصر بالسّعي إلى تحقيق الرّبح وجني المال، وفي كونه حرًّا في ما يفعل، لا تقيّده ضوابط. من هنا، كان الشّعار الشّهير في مرحلة نمو الرّأسماليّة وصعودها هو «دعه يعمل، دعه يمرّ»؛ أي دعه يعمل ولا تسأله عن شيء، ولا تحاسبه، ولا تقل له ماذا تفعل. دعه يعمل ويسوّق لسلع تجني الرّبح، سواء أكانت مفيدة أم لا، المهمّ أنّها تحقّق الرّبح لصاحبها.

«دعه يعمل، دعه يمرّ» هو الشّعار الأشهر الذي أطلقه الفيلسوف الأسكتلنديّ «آدم سميث» (1723-1790) (Adam Smith)، في كتابه «ثروة الأمم» الذي نشر في العام 1776، والذي طرح فيه قضيّة النّزعة التّجاريّة، وحاول من خلاله البرهنة على أنّ الفرديّة تؤدّي إلى الانسجام الاجتماعيّ، وأنّ التّجارة الحرّة البعيدة عن القيود والرّسوم التي تُفرض على الحرّيّة الفرديّة في التّجارة سينتج عنها التّقدّم البشريّ والاجتماعيّ، وطالب برفع يد الحكومة عن التّجارة. وبحسب «سميث»، يعمل الاقتصاد يعمل وفاقًا لثلاثة قوانين طبيعيّة: يقضي الأوّل بأنّ جميع الأشخاص يجب أن يتصرّفوا وفاقًا لمصلحتهم الذّاتيّة، والثّاني أنّ كلّ شخص هو أفضل مَن يعرف مصلحته الذّاتيّة، أما الثّالث فهو أنّ كلّ شخص يعمل وفاق مصلحته الذّاتيّة[1].

فإذا كانت غايتك الرّبح يمكنك أن تفعل ما تشاء؛ أنت حرّ، تختار ما تريد، هذا هو النّظام الحرّ. وبات الرّبح والحرّيّة أساس ثقافة المجتمع الجديد. «أن تمتلك أو لا تمتلك، هذا هو جوهر النّزعة الاستهلاكيّة، ومحرّك الرّأسماليّة الغربيّة. وبات الهدف الوحيد للحضارة هو أن يزداد المرء ثراء، وأن يمتلك أكثر وأكثر، وأيّ شخص لديه شكّ في فضائل الاستهلاك، لا يعدّ شخصًا وطنيًّا تمامًا»[2].

وقد تحوّلت الملكيّة الفرديّة وحافزيّة التّملّك إلى معيار التّمييز بين تقدّم الأمم، منذ القرن الثّامن عشر، مع حاجة أوروبا إلى مستعمرات تستهلك من جهة، وتوفّر الثّروات والموادّ الأوّليّة لمصانع الغرب من جهة ثانية. وبذلك، تمحورت أدبيّات «الحضارة» و«التّمدّن» و«الرّخاء» و«المدينة الفاضلة» حول الملكيّة الخاصّة، إذ صارت معيارًا للتّمييز بين الخير والشّرّ، وبات غيابها «من أبرز معالم المجتمعات

1- آدم سميث، ثروة الأمم، معهد الدّراسات الاستراتيجيّة، بغداد، ص 200.

2- روجر روزنبلات، ثقافة الاستهلاك والحضارة والسّعي وراء السّعادة، المركز القومي للتّرجمة، القاهرة، 2011، ص 8 و27.

الهمجيّة. وستظلّ هذه المجتمعات همجيّة بربريّة حتّى تتعلّم مركزيّة الملكيّة الفرديّة في نشوء الحضارة»، كما صرّح «ميريل غايتس» (Merill Gates)، رئيس جامعة رتجرز (Rutgers) ورئيس مؤتمر (Lake Mohonk)، في محاضرة له أمام الجمعيّة الأميركيّة للعلوم الاجتماعيّة (1885).

استعانت هذه الأدبيّات بأفكار أنبياء الإمبراطوريّة التي لا تغيب عنها الشّمس، من آدم سميث إلى توماس هوبس، إلى جون لوك، لرسم الحدود الفاصلة بين الحضارة والهمجيّة، أخلاقيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وجسديًّا، وفاق معايير «السّوق» التي لا تقيم للأخلاق وزنًا. فالمجتمع السّعيد الذي تسوده مكارم الأخلاق هو المجتمع القائم على قواعد الملكيّة الخاصّة؛ لهذا كان لا بدّ من وصف المجتمعات الهنديّة وكلّ مجتمعات غير بيضاء بأنّها مجتمعات منحطّة ودونيّة وهمجيّة، حَكَمَ عليها قانون «البقاء للأصلح» بالفناء إذا لم تعتمد نظام الملكيّة الفرديّة وتلحق بركب الحضارة. ولا بدّ للطفل الهنديّ - كما يقول مفوّض الشّؤون الهنديّة «جورج مانيبني» (George Manypenny) - من أن يتعلّم كلمة «أنا» بدلًا من «نحن»، وهذا «لي» بدلًا من «لنا»... ليتنازل طوعًا عمّا يملك[1].

هكذا تحوّل المجتمع نحو ثقافة التّملّك والاستهلاك، وانتُزع مفهوم السّعادة من بُعده الدينيّ ومن الضّوابط القيميّة والأخلاقيّة، ومن بساطة العيش والزّهد والتّواضع، ومن ارتباطه بالحياة الآخرة، كما دعت إليه المسيحيّة، لتصبح السّعادة في قبضة البعد المادّيّ اللّادينيّ، والذي تقتصر رؤيته للحياة على هذه الدّنيا فقط، ولا يرى في ضبط الرّغبات أو تأجيلها أيّ فائدة أو أيّ جدوى؛ لأنّ المطلوب هو خلاف ذلك؛ أي الحضّ والتّشجيع على المزيد من التّمتّع ومن الإنفاق ومن الشّعور بسعادة التّملّك. وباتت تقنيّات السّينما والإعلام ووسائل التّواصل والتّأثير المختلفة في خدمة هذه «العقيدة الجديدة»؛ عقيدة الرّبح والسّعادة الفرديّة.

وبما أن الرّأسماليّة لا تستطيع أن تستمرّ مع ثقافة البساطة والاكتفاء الذّاتيّ وعدم البذخ، أو شراء ما نحتاج إليه فقط، كان لا بدّ من تغيير القيم وطرائق التّفكير. لذلك؛ وُظّفت عقيدة المنفعة والفردانيّة في نظريّات علم النّفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد، لتبرير الرّبط بين الرّخاء والتّقدّم وبين زيادة الإنتاج، وبين التّنمية

1- منير العكش، أميركا والإبادات الثقافيّة: لعنة كنعان الإنكليزيّة، دار الرّيّس للكتب والنّشر، بيروت، 2009، ص 95.

والمزيد من الاستهلاك. وحتّى التّفكير في الموت من المنظور الدِّينيّ نُحِّيَ جانبًا؛ ليُستبدل بالدَّعوة إلى عيش الحياة ولحظاتها من خلال المحسوس والتَّجربة فقط، بعيدًا عن الغيبِ والآخرة، حتّى أصبحت مقولة «عش لحظتك» شعار رجل عصر النّهضة[1]. كما قسّمت الشّعوب إلى متقدّمة من جهة، ومتأخّرة أو متخلّفة أو في طور النّموّ من جهة ثانية، «والمقياس الوحيد الذي اعتُمد لتشخيص هذا التّقدّم والنّموّ هو الدّخل السّنويّ والعقليّة الاستهلاكيّة الفجّة؛ وهذا المقياس يقسّم البشر إلى فقراء وأغنياء. ومعيار الفقر والغنى هو حجم الاستهلاك والمقدرة عليه»[2]. كان مفهوم التّقدّم والترقي من اختراعات عصر النّهضة، ولم يكن له أيّ أثر في أدبيّات ما قبل عصر النّهضة. «كان فكر التّقدّم؛ أي التّقدّم المتواصل الذي لا حدّ ولا حصر له في المعنى، والتّحوّل من وضع متخلف إلى وضع أفضل، مجهولًا بالنّسبة إلى الإنسان حتىّ القرن السّابع عشر»[3].

كما سيلاحظ بعض الباحثين في المجال نفسه أنّ نظريّات علم النّفس توجّهت نحو تعظيم الفردانيّة، أو الذّاتانيّة، كما يسمّيها «بول سي. فيتز» (Paul Vitz). «لقد تبيّن أنّ كلّ النظريّات النّفسيّة المعاصرة عن التّحفيز والشّخصيّة تفترض أنّ مكافأة الذّات (أي الأنانيّة) هي المبدأ الأخلاقيّ الوحيد، وأنّ تحقيق الذّات والاستمتاع هي التّفسيرات الأساسيّة لهدف كلّ شيء من التّعليم الجامعيّ إلى الحياة نفسها. ولا توجد لدى أصحاب نظريّة الذّاتانيّة واجبات محدّدة ولا موانع أو قيود، ثمّة حقوق فرديّة وفرص للتّغيير فقط. كما لا وجود لعلاقات أخلاقيّة أو شخصيّة ثابتة، ثمّة فقط أشياء يحبّها المرء أو يكرهها»[4]. واستنادًا إلى غرائز أصيلة وجوهريّة لدى الإنسان هي «المنفعة والرّاحة والحرّيّة»، ستتحوّل الفردانيّة إلى تأليه الإنسان «الذي ستكون ذاته هي المرجع النهائيّ لكلّ أشكال المعرفة،

1- جاك شورون، الموت في الفكر الغربيّ، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 76، ص 143.

2- مرتضى آويني، التّنمية وأسس الحضارة الغربيّة التّقدّم الاقتصاديّ أم التّكامل الثقافيّ، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، بيروت، 2016، ص 22.

3- المرجع نفسه، ص 206.

4- بول سي. فيتز، علم النّفس دينًا: مذهب عبادة الذّات، دار أدب للنّشر والتّوزيع، المملكة السّعوديّة، الرّياض، 2022، ص 12 و14 و74 و135.

ولـكلّ المواقـف والقـرارات، اسـتنادًا إلـى لاءات أربعـة هـي:

- لا سلطة فوق سلطة الذّات.
- لا سعادة إلّا من خلال الذّات.
- لا قيمة أخلاقيّة إلّا من خلال تحقيق منافع الذّات.
- لا حقيقة إلّا من خلال معرفة الذّات.

فبـات الإنسـان، مـن وجهـة نظـر الفردانيّـة والذّاتانيّـة، المقـدّس الأوحـد فـي الوجـود؛ لا شـيء يعلـو رأيـه وحرّيّتـه وسـلطته وقـراره، فهـو صانـع القـرار وصانـع الحقيقـة». وهـذا مـا أدّى إلـى إعـلان «مـوت الإلـه».

وهـا هـو «كارل روجـرز» (Carl Rogers)، عالـم النّفـس الأميركـيّ (1902-1987)، يؤكّـد: «إذا أراد الإنسـان أن يحـبّ نفسـه ويخلـص لذاتـه الحقيقيّـة فعليـه أن يعيـش وفاقًـا لطبيعتـه، وأن يتصـرّف كمـا يريـد هـو لا كمـا يريـد الآخـرون. ولم يعـد ثمّـة حاجـة إلـى اسـتنزال التّشـريع مـن السّـماء أو أخـذه مـن رجـال الكنيسـة؛ بـل كلّ ذلـك يجـب أن يعـود إلـى الإنسـان وحـده»[1]. فـإذا مـا ابتلـي أحـد الأشـخاص فـي تقديـره لذاتـه ابتـلاء يسـيرًا، فإنّـه يعلـم علـى الفـور مـا يجـب عليـه فعلـه: «اشـترِ شـيئًا! فإنّ شـراء الأشـياء يسـري عنـك! تنـاول شـيئًا حلـوًا وشـهيًّا! اشـرب شـيئًا! ابتع شـيئًا! عليك بالنّشـوة! شـاهد فيلمًـا إباحيًّـا». لكـنّ هـذه التّدابيـر فـي الحقيقـة لا تجلـب سـوى راحة مؤقّتـة -إنّ حقّقـت أيّ رضـى أصـلًا-، وعاقبـة ذلـك سـقوط المجتمـع برمّتـه فـي دورة اسـتهلاكيّة إنتاجيّـة خبيثـة تتلاعـب بالأمزجـة، ويديرهـا فـي المجمـل جُبـاة الأربـاح إدارة مقصـودة، عبـر أحـدث التّقنيّـات البحثيّـة فـي الإعـلان والتّسـويق. «ويبـدو أنّـه لـم يعـد ثمّـة شـيء يمنـح المـرء الشّـعور بالاهتمـام بالـذّات كمـا يفعـل الاسـتهلاك»[2].

ويمكـن القـول، مـن دون أيّ مبالغـة، «أنّ الحضـارة الحديثـة بنـت مؤسّسـاتها الاجتماعيّـة والسّياسـيّة والاقتصاديّـة كلّهـا علـى هـذا الأسـاس؛ لأنّ النّفعيّـة هـي أسـاس الاقتصـاد الرّأسـماليّ»[3]. وهكـذا، «أصبـح تثبيـت القيـم البورجوازيّـة (السّـوق، الرّبـح

1- صـدر الدّيـن القبانجـي، الأسـس الفلسـفيّة للحداثـة: دراسـة مقارنـة بيـن الإسـلام والحداثـة، مركـز الحضـارة لتنميـة الفكـر الإسـلاميّ، بيـروت، 2011، ص 56 و67 و69.

2- روزنبـلات، مرجـع سـابق ص26؛ وسـلون، تـود سـلون، حيـاة تالفـة أزمـة النّفـس الحديثـة، ابـن النّديـم للنّشـر والتّوزيـع، ودار الرّوافـد الثّقافيـة- ناشـرون، الجزائـر- بيـروت، 2021، ص 182.

3- آويني، مرجع سابق، ص 124.

والمؤسّسة) هو الإيديولوجيا المهيمنة، وبات التغنّي أو الصّدع بمحامدها شُغل الإعلام كلّه»[1].

لقد ربطت السّعادة بالإنفاق والتّملّك من جهة، وبعدم الرضى وعدم الاكتفاء من جهة ثانية. وهذه هي فلسفة الاستهلاك؛ أن تشتري وأن لا تكفّ عن الشّراء، وأن لا ترضى أو تكتفي بما حصلت عليه. فبات التّغيير هو الشّعار الذي رافق صعود الرّأسماليّة. وقد تمدّدت ثقافة عدم الاكتفاء وعدم الرّضى إلى العلاقات الإنسانيّة أيضًا، فلم يعد من الضّروري التّمسك بها ولا الدّفاع عن ثباتها، ولا الاكتفاء بأشكالها المعروفة. وهذا ما سيمهّد لاحقًا لتفكيك الأسرة «الثّابتة» لتتحوّل إلى علاقات عابرة ومتنوّعة؛ «لأنّ علاقات الإنتاج والاستهلاك هي التي ستحدّد طبيعة العلاقات الأسريّة. وحتّى النّظام التّعليميّ يجب أن يكون خاضعًا للتّخطيط التّنمويّ الاقتصاديّ؛ فالاقتصاد هو البنية التّحتيّة لكلّ الخطط والتّحوّلات الاجتماعيّة والثّقافيّة. ولهذا؛ يعمل الفكر الغربيّ على تحقيب الحياة الإنسانيّة وفاق وسائل الإنتاج التي يستخدمها الإنسان. ومن هنا، يُقال: العصر الحجريّ، العصر البرونزيّ والعصر الحديديّ»[2].

لقد تغذّت الرّأسماليّة من عمليّة تحويل الرّغبات إلى حاجات؛ فرغبات الإنسان لا حدود لها. وبالتّالي، على الإنسان أن يتملّك وينفق لإشباع هذه الرّغبات التي تعمل مؤسسات الرّأسماليّة على تحريضها وتحفيزها، من خلال:

- المصانع التي تنتج السّلع المختلفة.
- وسائل الإعلان التي تحرّض وتحفّز على الشّراء والتّملّك.
- الدّراسات النّفسيّة التي تشرح كيف يجب أن يشعر الإنسان بالسّعادة والحريّة وهو يتحوّل إلى مستهلك.

«إنّه اقتصاد يرتكز على الحماس داخل مقرّ العمل، والرّغبة داخل مركز التّسوق، وعلى بيع ما لا يحتاج إليه النّاس»[3]. وعندما تحصر الحاجات في البعد المادّيّ للوجود يصير النّقد هو الوسيلة الوحيدة لتأمين هذه الحاجات، ويتحوّل النّقد بدوره

1- سلون، مرجع سابق، ص 48 - 49. صدر الكتاب بالإنكليزيّة في العام 1996، ص 56.

2- آويني، مرجع سابق، ص 54 و58.

3- ويليام ديفيز، صناعة السّعادة كيف باعت لنا الحكومات والشّركات الكبرى الرفاهيّة؟، سلسلة عالم المعرفة، العدد 464، الكويت، 2018، ص 165 و215.

إلى غاية وهدف. «وهذا هو الدّاء الذي أصاب البشريّة في عصرنا الرّاهن. وهو داء لا علاج له لا بالكيمياء ولا بالتّحليل النّفسيّ»[1].

إنّ عجلة الاقتصاد التي تدور بسرعة هائلة تجعل أدنى تردّد من المستهلك قادرًا على زلزلة أركان الاقتصاد. «ومن الأمور التي تشبه الكوابيس عند علماء الاقتصاد أن تستفيق شعوب العالم من سباتها وتبحث عن حاجاتها الحقيقيّة، إذ سيشكّل ذلك أكبر أزمة في تاريخ الحضارة الغربيّة»[2]. لذلك؛ يهدف خبراء التّقنيّات الحديثة، وخاصّة في مجال العلاقات والدّعاية، إلى إزالة التّردّد لدى الزّبائن. «وهذه الحالة هي التي تصنع من المستهلك أداة للدّفاع عن الرّأسماليّة بحجّة حرّيّة الاختيار لديه؛ لكنّها في الواقع تسخر منه، فتوظّف وسائل عامّة لإقناعه، ولإثارة القوى الغريزيّة لديه، لأجل ترغيبه في الشّراء»[3]. وبذلك أصبحت الدّعاية في عالم الاقتصاد أمرًا لا بدّ منه؛ بل وأحد أركانه.

بدأ هذا التّرغيب في الشّراء والتّملّك والتّحفيز على الاستهلاك مبكرًا، منذ القرن الثّامن عشر، مع صعود الرّأسماليّة، ومع الحملات التي قادها المستعمرون «البيض» إلى بلاد الشّعوب الملوّنة مثل الهند والصين. وقد «استعانت الدّولة بالمبشّرين وسخت عليهم، وطلبت منهم في العام 1802 أن يكيّفوا لاهوتهم بما يرضي الله و(ثروة الأمم). لقد سألتهم أن يذهبوا إلى الهنود، وأن يزرعوا في نفوسهم حبّ الشّهوات والتّملّك والاكتناز والاستهلاك السّفيه: (اشتروا أو موتوا buy or die). ومثال ذلك أن يبشّروهم بأعجب خلاص عرفته أديان البشر؛ مثل إقناعهم أنّ التّخلّي عن منسوجاتهم الوطنيّة وارتداء البنطال ذي الجيوب، وغيره من الملابس المصنوعة آليًّا، يساعدهم على إنقاذ أرواحهم». وهكذا، أُسقطت على الصّينيّين الذين خلت ملابسهم من الجيوب كلّ عاهات المتخلّفين التي تحرمهم من استهلاك السّلع الأميركيّة.

«إنّ قبول الصّينيّين للمسيحيّة سينسف كلّ علاقات الملكيّة البدائيّة بينهم، من الجذور. كما سيقضي على نظام التّكافل العائليّ. وستكون هذه أوّل درجة يرتقيها الصّينيّون على سلّم الحضارة. إنّها خطوة تطوّر هائلة؛ إذ ما من معوّق

1- آويني، مرجع سابق، ص 112.

2- المرجع نفسه، ص 83.

3- المرجع نفسه، ص 82.

أمام تقدّم الحضارة بين الصّينيّين أخبث من نظامهم العائليّ الكبير الذي يتعاون فيه أفراد العائلة، ويتكافلون، ويعتمد الواحد منهم على الآخر في إطار الملكيّة العامّة.

وفي هذا الإطار من الاستعلاء ومن التّحفيز على التّملّك والاستهلاك، ألقى المبشّر «ميريل غايتس» (Merill Gates) خطبة أمام مؤتمر «جمعيّة أصدقاء الهنود» التي يرأسها، قال فيها: «لا تزال ثمّة حاجة ماسّة لإيقاظ الشّهوات والملذّات والاحتياجات في هذا الهنديّ الهمجيّ. ولإنقاذ الهنديّ من همجيّته يجب أن نجعله أنانيًّا، ذكيّ الأنانيّة، وليس، كما هو الحال الآن، ذكيًّا أنانيّ الذّكاء. علينا أن نوقظ فيه الجشع، والنّهم إلى الأشياء. إنّه في همجيّته المقيتة يحتاج إلى لمسة مباركة من أجنحة ملائكة السّخط؛ السّخط على طعامه، والسّخط على نمط حياته المتقشّفة. يجب أن ننقذه مما يلتحف به ليلبس البنطال، بنطالًا مع جيوب يضع فيها بضعة دولارات ليشتري بها ما تنتجه المصانع الأميركيّة ويتمدّن. كلّ هذا يحتاج إلى تربية أخلاقيّة صارمة، تحبّبه بالتّملّك وتؤهّله للحضارة»[1].

الاحتلال في خدمة التّقدّم

أدّى هذا التّطوُّر في سرعة الإنتاج، وما رافقه من هاجس الرّبح وإعلاء شأن التّملّك وتكديس الثّروة، في إطار تشكّل الرّأسماليّة، إلى البحث عن أسواق خارج أوروبا؛ ما أسهم بشكلٍ رئيس في تحريكِ الحملات الّتي قادتها أوروبا خارج حدودها لاحتلال أراضٍ جديدة، كان الهدف منها فتح أسواق إضافيَّة لمنتجات مصانعها، وجذب مُسْتهلكين جُدُد إليها، ووضع اليد على ثرواتِ تلك البلدان لاستخدامها في المصانع الغربيّة؛ لكي تستمرّ في الإنتاج وتحقيق الأرباح. حتّى بات من غير الممكن أن نفصل منهجيًّا بين التّقدّم الاقتصاديّ الدّاخلي للمجتمعات الأوروبيّة وبين التّنافس الخارجيّ في ما بينها على تلك الثّروات.

لذلك؛ لم يكن احتلال فرنسا بلدًا مثل الجزائر استثناءً؛ بل يتّصل مباشرة بالصّراع والتّنافس الغربيّ على النّفوذ والثّروات. فقد سعت فرنسا منذ القرن التّاسع عشر، باحتلالها مصر، إلى تحقيق مصالح اقتصاديّة، تتمثّل في السّيطرة على الطّرق التّجارية البحريّة القادمة من الهند إلى الشّرق الأوسط، وفتح الطّريق أمام أسواق

1- العكش، مرجع سابق، ص 244 - 245.

جديدة لتصريف البضائع والسّلع الفرنسيّة، ومنع إنجلترا من الوصول إلى الهند. «وقد بدأ التّجهيز للحملة الفرنسيّة على مصر في الخامس من مارس/ آذار 1798، وتكوّن الجيش الفرنسيّ من قوّة عسكريّة تقدّر بـ 36 ألف مقاتل، تحملهم 300 سفينة، ويحرسهم أسطول حربيّ فرنسيّ مؤلّف من 55 سفينة ومدفعيّة، وسمّيَ بجيش الشّرق. واصطحب نابليون معه مطبعة بحروف فرنسيّة وعربيّة ويونانيّة، ومجموعة من العلماء والنّوابغ في العلوم المختلفة»[1]. وقد حصلت هذه الحملة بعد عشر سنوات فقط من الثّورة الفرنسيّة (1789)؛ ثورة «الإخاء، والحرّيّة والمساواة».

لقد احتُلّت الجزائر في الواقع لضمّها إلى «الإمبراطوريّة الاستعماريّة الفرنسيّة»، وهي مجموعة من المناطق التي خضعت للحكم الفرنسيّ خارج أوروبا، منذ مطلع القرن السّابع عشر (1600) حتى أواخر العقد الثّامن من القرن العشرين (1980)، وكانت تمتلك مستعمرات عدّة في مواقع مختلفة حول العالم. وكانت فرنسا، في القرن التّاسع عشر وبدايات القرن العشرين، ثاني أكبر سلطة في العالم بعد الإمبراطوريّة البريطانيّة.

وقد تأسّست في فرنسا، في العام 1922، «أكاديميّة العلوم الاستعماريّة»؛ وهي مؤسّسة تعليم عالٍ وبحثيّ للعلوم الاستعماريّة. ولم تتغيّر هذه التّسمية إلّا بعد خمسة وثلاثين عامًا؛ أي في العام 1957، فأطلق عليها أكاديميّة «علوم ما وراء البحار». ولا يزال إلى اليوم، في أيّ حكومة فرنسيّة، «وزير ما وراء البحار» الذي يُعنى بشؤون الدّول التي لا تزال خاضعة للوصاية الفرنسيّة وتحرص فرنسا على حماية مصالحها فيها، خاصّة أفريقيا.

كما كان الصراع على الثّروات والنّفوذ والتّوسّع والسّيطرة على الموارد من أهمّ أسباب اندلاع حربين عالميّتين مدمّرتين بين الدّول الغربيّة نفسها، راح ضحيّتها عشرات الملايين من النّاس في أوروبا كافّة.

برّر الغرب سياسات التّنافس والاحتلال بشعارات إنسانيّة وأخلاقيّة، فنسب إلى نفسه مهمّة استعلائيّة هي «تمدين» الشّعوب المتخلّفة. وكان لافتًا أن يتماهى مثقّفون وأدباء مع هذا التّبرير الاستعلائيّ الغربيّ، حتّى أنّ «فيكتور هوغو» (Victor Hugo) على سبيل المثال، مؤلّف قصّة «البؤساء»، عدّ احتلال فرنسا الجزائرَ «خبرًا مفرحًا». يقول صاحب تلك الرّواية الشّهيرة: «إنّ الغزو الذي قمنا

1- نبيل زكاوي، مرجع سابق.

بـه فـي الجزائـر ذو شـأن كبيـر ومفـرح. إنّهـا الحضـارة التـي تكتسـح البربريّـة. إنّـه الشّـعب المسـتنير الـذي يذهـب باتّجـاه شـعب غـارق فـي الظّـلام. نحـن إغريـق العالـم وعلينـا أن نضيئـه».

كمـا خطـب «هوغـو»، والـذي كان عضـوًا فـي مجلـس الشّـيوخ الفرنسـيّ، مشـجّعًا أبنـاء وطنـه علـى تسـريع عمليّـة اسـتعمار أفريقيـا، واصفًـا هـذا الاسـتعمار بالضّـروريّ والسّـهل. فـأردف قائـلاً: «هيّـا أيّهـا النّـاس، اسـتولوا علـى هـذه الأرض، احصلـوا عليهـا. لمـن تعـود ملكيّتهـا؟ إنّهـا ليسـت ملـكًا لأحـد. اذهبـوا واحصلـوا علـى هـذه الأرض لأجـل الـرّبّ، إنّـه هـو الـذي يهـب الأرض للنّـاس، والـرّبّ أهـدى أفريقيـا لأوروبـا...»[1].

لـم يـرَ «هوغـو» أيّ تناقـض بيـن تشـجيعه علـى تحريـر السّـود مـن العبوديّـة واحتلال قارّتهـم! «لأنّ الرّجـل الأبيـض، صَنـعَ مـن الأسـود إنسـانًا فـي القـرن التّاسـع عشـر. وبالطّريقـة نفسـها، سـتصنع أوروبـا مـن أفريقيـا عالمًـا فـي القـرن العشـرين»[2].

ينضـمّ إلـى قائمـة المدافعيـن عـن اسـتعمار أفريقيـا، مـن منطـق الاسـتعلاء نفسـه، شـخصيّات عـدّة؛ مـن بينهـا علـى سـبيل المثـال الأديـب الفرنسـيّ «ألبيـر كامـو» بقولـه: «إنّ الأرض ملـك لمـن يرعاهـا بشـكل أفضـل»[3]. و«جـول فيـري» (Jules Ferry) الـذي اشـتهر بـرؤاه الإصلاحيّـة التّربويّـة فـي فرنسـا، وهـو مـن أشـدّ أنصـار الحركـة التّوسّـعيّة الفرنسـيّة، إذ قـال أثنـاء نقـاش برلمانـيّ فـي العـام 1885: «إنّ سـبب التّوجّـه إلـى اسـتعمار أفريقيـا هـو أنّ العرقيّـات المتفوّقـة لديهـا حقـوق علـى حسـاب العرقيّـات السّـفلى. كمـا أنّ للأولـى واجبًـا يتمثّـل فـي نشـر الحضـارة لـدى الثّانيـة. وإنّ مقولـة (حريّـة، مسـاواة، إخـاء) لـم تنشـأ ولا تصلـح للشّـعوب المولّـى عليهـا»[4]. لقـد جعـل الغـرب الأوروبـيّ النّزعـة الإنسـانيّة «تقتصـر علـى المنتسـبين إليـه، مـع اعتقـاد بـأنّ الشّـعوب الأخـرى كانت

1- سـعدي بزيـان، جرائـم فرنسـا فـي الجزائـر: صفحـات مظلمـة مـن تاريـخ الاسـتعمار الفرنسـيّ في الجزائـر مـن الاحتـلال 1830 إلـى الاسـتقلال 1962، دار هومـة للطّباعـة والنّشـر، الجزائـر، 2005، ص 21.

2- ملـف فـي مجلّـة Le Nouvel Observateur الفرنسـيّة بعنـوان: «عندمـا احتلّـت فرنسـا أفريقيـا لتضـع حـدًّا للعبوديّـة»، 18/7/2020.

3- سعدي بزيان، مرجع سابق، ص 50.

4- مجلّة Le Nouvel Observateur، مرجع سابق.

متخلّفة، وتعيش وفاق مواصفات العهود السحيقة؛ أي إنّها بدائيّة»[1].

ما كتبه «فيكتور هوغو» (Victor Hugo) في روايته كان تعاطفًا مع بؤساء المجتمع الفرنسيّ، لكنّه لم يفعل ذلك مع شعوب أخرى غير فرنسيّة في أفريقيا؛ بل شجّع على احتلالها لأنّها «الحضارة التي تكتسح البربريّة»، ولأنّه من الشّعب المستنير الذي يذهب باتّجاه «شعب غارق في الظّلام».

للمفارقة، تُعدّ «البؤساء» من أشهر روايات القرن التّاسع عشر. ففيها وصف للظّلم الاجتماعيّ في فرنسا وانتقاد له، وللحياة الاجتماعيّة البائسة التي عاشها الفرنسيّون بعد سقوط «نابليون» (Napoleon Bonaparte) في العام 1815، والثّورة التي حُكم عليها بالفشل ضدّ الملك «لويس فيليب» (Louis-Philippe) في العام 1832. ويصوّر «هوغو» (Hugo)، في حياة «جان فالجان» (Jean Valejan) في السّجن وخارجه، المعاناة التي عاشها الفرنسيّون في تلك الفترة. وتؤكّد لنا هذه الرّواية أنّ «تقدّم الغرب» واجه منذ بداياته إشكاليّتين؛ الأولى ما حلّ على بلاده من بؤس وشقاء ومن فقر وتفاوت اجتماعيّ رافق صعود الرّأسماليّة وتوسّعها وعولمتها، ولم تجد له الرّأسماليّة حلًّا. والثّانية تلازم هذا التّقدّم مع احتلال شعوبٍ نَهبَ الغرب ثرواتها خدمة لرأسماليّته، ولمؤسّساته ومصانعه، ومع استعلاء برّر به الغرب الاحتلال بالتّمدين، ولم يفصل فيه بين التّبشير الدّينيّ وبين تجارة الأقمشة.

«إنّ تصدير المثاليّة المسيحيّة سوف يمضي يدًا بيد مع تصدير الأقمشة والبضائع المصنّعة. لقد آن للعالم، كلّ العالم، أن يتنصّر ويتمدّن. وهل إجراءات التّمدين إلّا أن تخلق في الهمجيّ احتياجات أعظم للاستهلاك وشهوات أقوى؟ إنّ التّبشير سيعبّد الطّريق للتّجارة. وإنّ الملايين في أفريقيا وآسيا يشعرون اليوم بالحاجة إلى حضارتنا المسيحيّة؛ إنها تنبض في عروق أفريقيا وتشيع الحياة في جنوب أميركا. وها هي العظام الرّميم لآسيا تتململ، فالنّفس الدّافئ الذي تبعثه حضارتنا يكسو أضلاعها لحمًا. ما سيضيف هذه القارّات إلى أسواقنا، ويجعل من الولايات المتّحدة مشغّلًا جبّارًا للعالم كلّه»[2].

من المؤكّد أنّ وجه فرنسا الذي احتلّت به أفريقيا والجزائر لم يكن وجه

1- إدغار موران، مرجع سابق، ص 25.

2- العكش، مرجع سابق، ص 232.

التّمديـن الـذي مارسـته العرقيّـات الأعلى على العرقيّـات السّـفلى، كمـا قـال مؤلّـف البؤسـاء أو «ألبيـر كامـو» (Albert Camus)، أو حتّى جـول فيـري (Jules Ferry) الرّائـد التّربـويّ في فرنسـا. ولـم يكـن بـكلّ تأكيـد وجـه التّقـدّم الـذي دُهـش لـه «محمّد عبـده» فـي باريـس. إذ كيـف يمكـن أن يكـون الأمـر على هـذا المُبتغى وقـد فاقـت المذابـح والجرائـم التي ارتُكبـت في الجزائـر حجـم التّصوّر. وقـد اختلفـت إحصائيّات المؤرخيـن الفرنسـيّين على عـدد الجزائريّيـن الذيـن أبادهـم الاسـتعمار الفرنسـيّ خـلال الاحتـلال. بعـض المصـادر يتحـدّث عـن مليـون، والبعـض الآخـر عـن 500 ألـف. والرّقـم قـد يكـون صحيحًـا إذا كان يتحـدث عـن بدايـة الاحتـلال، أمّـا إذا كان يتحـدّث عـن كافّـة مراحـل الاحتـلال مـن العـام 1830 إلـى العـام 1962، فالرّقـم يزيـد عـن المليونيـن ونصـف»[1].

علمًـا؛ أنّ فرنسـا قـد بـدأت سياسـتها الاسـتعماريّة بحلـول الرّبـع الأوّل مـن القـرن السّـادس عشـر، عندمـا فرضـت سـيطرتها على أكثـر مـن 20 دولـة أفريقيّـة، واسـتمرّت في حكـم نحـو 35% مـن مسـاحة القـارّة لمـدّة 300 عـام؛ أي إنّ السّياسـة الاسـتعماريّة الفرنسـيّة رافقـت التّقـدّم العلميّ والاكتشـافات التي توّجـت مـا أطلـق عليه عصـر الأنوار أو عصـر النّهضـة. لقـد تـلازم التّقـدّم والأنـوار مـع الاسـتعمار والاحتـلال.

كان التّقـدّم منـذ بداياتـه بحاجـة إلى الاحتـلال، مـن أجـل الغـرب نفسـه، وليـس مـن أجـل التّمديـن، ولا مـن أجـل الأعـراق السّـفلى، ولا حتّى مـن أجـل حـوار للحضـارات. فالمصانـع تحتـاج فـي دورة إنتاجهـا المتواصـل إلـى المـوادّ الأوّليّـة بشـكل دائـم. على سـبيل المثـال، مـن يريـد صناعـة الأقمشـة يحتـاج الـى القطـن الـذي قـد لا تكفـي كمّيّاته الموجـودة فـي أوروبـا، أو تتنافـس مصانـع عـدّة للحصـول عليـه. مـا يعنـي أنّـه لا بـدّ مـن الحصـول على هـذا القطـن بـأيّ ثمـن، ومـن أيّ بلـد، حتّـى لا تتوقّـف أو تتعثّـر وتيـرة الإنتـاج، أو تتراجـع وتيـرة الرّبـح. فـإذا توفّـر مثـل هـذا القطـن فـي أفريقيـا، أو فـي مصـر، أو فـي أيّ بلـد آخـر ينبغـي على الجيـوش أن تجعـل الحصـول عليـه ضمـن مخطّطاتهـا وأهدافهـا؛ سـواء بالقـوّة أو بـأيّ وسـيلة أخـرى. «لقـد انخرطـت بريطانيـا فـي شـؤون مصـر بعـد تحويلهـا إلـى مسـتعمرة اقتصاديّـة تسـتورد جميـع السّـلع الصّناعيّـة مـن بريطانيـا، ومجبَـرة علـى زراعـة القطـن لأغـراض التّصديـر. كان على المزارعيـن الحصـول على قـروض، مـا كان يعرّضهـم إلـى الإفـلاس كلّمـا انخفضـت أسـعار القطـن

1- سعدي بزيان، مرجع سابق، ص 21.

ويجبرهم على بيع أراضيهم للإقطاعيّين الأثرياء. واستُبدل المسؤولون المحليّون بموظّفين بريطانيّين...»[1].

عندما احتلّت بريطانيا الهند، كانت هذه الأخيرة تنتج 25 بالمئة من أقمشة العالم كلّه. بعد أقلّ من 100 سنة من الاحتلال البريطانيّ لم تعد الهند تنتج عشر ما تحتاجه داخليًّا من الأقمشة، وصارت تستورد الباقي من بريطانيا. كانت الهند بالنّسبة إلى بريطانيا مثل الإوزّة التي تبيض ذهبًا. وفي الوقت نفسه، لم يكن أمام الهند من خيار سوى الاقتراض من بريطانيا لتمويل وارداتها. وعليه؛ أُجبِر جميع السّكّان الهنود على تحمّل ديون لا داعي لها تمامًا لأسيادهم المستعمرين، الأمر الذي عزّز الهيمنة البريطانيّة ورسّخها.

لقد استغلّت بريطانيا هذا التّدفّق من المدفوعات الهنديّة في تمويل توسّع الرّأسماليّة في أوروبا وفي مناطق المستوطنات الأوروبيّة؛ مثل كندا وأستراليا، وفي التّطوّر الصّناعيّ الذي شهده العالم الغربيّ. لا بل علينا، كما يقول أحد الباحثين البريطانيّين، أن نعترف «أنّ بريطانيا حافظت على سيطرتها على الهند ليس من منطلق فعل الخير وتقديم الإحسان، كما تروّج له الأدبيّات الرّسميّة؛ بل من أجل نهب مواردها. وأنّ الثّورة الصّناعيّة التي شهدتها بريطانيا لم تكن فقط نتيجةً للمحرّك البخاريّ والمؤسّسات القويّة، مثلما توضح كتبنا الدّراسيّة، لكنّها اعتمدت على السّرقات العنيفة من الأراضي والشّعوب الأخرى»[2]. وقد أدّت سياسات «ونستون تشرشل» (Winston Churchill)، رئيس الوزراء البريطانيّ، إلى وفاة أكثر من 4 ملايين بنغاليّ، بعدما أمر بتحويل بواخر القمح من مرافئ الهند إلى العاصمة البريطانيّة، لتعزيز المخزون الاحتياطيّ في حال وقوع غزو مستقبليّ لليونان ويوغوسلافيا؛ ما أغرق إقليم البنغال في المجاعة، فمات كثير من النّاس جوعًا. وكلّ ما قاله «تشرشل» تعليقًا على الموضوع هو أنّ: «هذا خطؤهم؛ لأنّهم يتكاثرون كالأرانب. وأنا أكره الهنود، إنّهم شعب وحشيّ يعبد ديانة وحشيّة»[3].

عندما احتلّت فرنسا الجزائر كانت تعتقد «أنّها ستحصل على غنيمة تُقدّر

1- موقع Fanack 2017/3/30.

2- جيسون هيكيل، كيف سرقت بريطانيا 45 تريليون دولار من الهند؟، موقع الجزيرة، 26/12/2018.

3- BBC News عربية، 24/7/2020.

بـ150 مليـون فرنـك، موجـودة في خزينـة الدّولـة. وقـد تعـاون الرّأسـماليّون الفرنسـيّون الذيـن كانـوا يبحثـون عـن التّوسّـع للعثـور علـى أسـواق جديـدة ومـوادّ خـامّ ضروريّـة لهـم، مـع رجـال الجيـش الذيـن كانـوا يبحثـون عـن المغامـرة وملء جيوبهـم بواسـطة السّـلب والنّهـب حتّـى يرتقـوا إلى مصـافّ الشّـخصيّات الرّاقيـة في المجتمـع الفرنسـيّ. كمـا كانـت مجموعـة مـن التّجّـار متحمّسـة لفكـرة احتـلال الجزائـر والاسـتيلاء علـى الأراضـي الخصبـة فيهـا، وزراعـة العنـب والبحـث عـن المناجـم والذّهـب»[1].

بمعنـى أوضـح، كانـت القـوى التـي أرادت احتـلال الجزائـر سياسـيّة واقتصاديّـة وعسـكريّة، ولا علاقـة لهـا بـأيّ تمديـن أو تحضّـر مزعـوم، كمـا يفتـرض فيكتـور هوغـو وغيـره. وهـذه القـوى هـي السّـلطة السّياسـيّة الفرنسـيّة التـي كانـت تريـد اسـتغلال خيـرات الجزائـر والحصـول علـى مـا في خزينتهـا مـن أمـوال، والرّأسـماليّون الفرنسـيّون والتّجّـار الذيـن يبحثـون عـن مـوادّ خـامّ جديـدة لصناعاتهـم وعـن المناجـم والذّهـب، والجيـش الـذي يريـد الإثـراء للتّباهـي مـع شـخصيّات المجتمـع الفرنسـيّ. وقـد رُبـط ذلـك كلّـه بأطروحـة التّقـدّم والتّمديـن.

لـم يقتصـر اسـتغلال ثـروات البلـدان الأخـرى علـى الحقبـة الاسـتعماريّة المباشـرة في القـرن التّاسـع عشـر، فهـا هـو الرّئيـس الفرنسـيّ جـاك شـيراك، بعـد مضـيّ كلّ تلـك السّـنوات مـن الاحتـلال، يعتـرف أنّ فرنسـا مـن دون خيـرات أفريقيـا سـتكون مـن دول العالـم الثّالـث، وأنّ ثـروات بـلاده هـي مـن اسـتغلال أفريقيـا. وفـي مقابلـة معـه فـي 2022/11/9 قـال حرفيًّـا: «إنَّ جـزءًا مـن المـال الموجـود في جيوبنـا أتـى بالتّحديـد مـن الاسـتغلال منـذ قـرون لأفريقيـا، ليـس كلّـه ولكـن الكثيـر منـه أتـى مـن اسـتغلال أفريقيـا. ويجـب أن نملـك القليـل مـن العقـل السّـليم ومـن العدالـة، لنُعيـد للأفريقيّيـن مـا سـلبناه منهـم، إذا أردنـا أن نتفـادى أسـوأ أو أصعـب الصّراعـات، مـع النّتائـج السّياسـيّة المترتّبـة عـن ذلـك فـي القـرون المقبلـة». وكذلـك، يعتـرف الرّئيـس الأسـبق فرنسـوا ميتـران: «مـن دون أفريقيـا فرنسـا لـن تملـك أيّ تاريـخ أو تواجـد فـي القـرن الواحـد والعشـرين؛ فبقـاء سـيطرة فرنسـا علـى أفريقيـا يكسـبها قـوّة عالميّـة».

وهكـذا تنتشـر المؤسّسـات الفرنسـيّة في ربـوع القـارّة؛ فنجـد اسـتثمارات «توتـال» فـي قطـاع النّفـط والطّاقـة، و«إلسـتروم» فـي النّقـل، و«بويـغ» فـي البنـاء والعقـار، و«أورانـج» فـي الاتّصـالات. لقـد اسـتفادت هـذه المؤسّسـات مـن المـوارد الإفريقيّـة

1- موقع معرفة www.marefa.org.

واستغلّت رخص الأيدي العاملة، وفي كثير من الأحيان انتفعت من ضعف القانون عبر دعم سياسيّ للدّيكتاتوريّات الإفريقيّة مقابل الحصول على امتيازات ضريبيّة ورقابيّة. وتعدّ إمدادات النّفط واليورانيوم من القارّة ضرورة لا غنى عنها لفرنسا، إذ يوفّر «يورانيوم النّيجر 20 في المئة من الوقود لمفاعلات فرنسا النوويّة البالغ عددها 58 مفاعلًا، والمسؤولة عن توليد ما يقرب من 75 في المئة من الكهرباء في فرنسا»[1]. أي إنّ ثروات فرنسا التي هي أساس تقدّمها هي، كما يعترف رؤساؤها، من استغلال أفريقيا المباشر التي احتلّتها ما قبل القرن التّاسع عشر وبقيت في معظم بلدانها حتّى منتصف القرن العشرين.

وفي مالي، على سبيل المثال، أضحت الاكتشافات الضّخمة من اليورانيوم والنّفط والغاز والنّحاس والفوسفات والبوكسيت والأحجار الكريمة والذّهب مثار اهتمام القوى الدّوليّة، لا سيّما فرنسا؛ المستعمِرة السابقة. ففي وقت تقدَّر فيه احتياطيات مالي من خام اليورانيوم بنحو 100 مليون طنّ، لا تزال الأخيرة واحدة من أفقر دول أفريقيا والعالم؛ إذ يقول صندوق النّقد الدوليّ إنّ نسبة الفقر في البلاد بلغت أكثر من 42 في المئة في العام 2019، وأنّه بعد «60 عامًا، لم تنل الدّول الأفريقيّة الفرانكفونيّة استقلالًا حقيقيًّا ولا حرّيّة بعد، وأنّ الأمر يبدأ من المدارس التي تُقرَّر مناهجها في فرنسا»[2].

ولا تقلّ تجربة الكونغو، البلد الأفريقيّ الآخر، مأساويّةً عن الدّول الأفريقيّة الأخرى التي نهبها الغرب وقتل الملايين من أبنائها، لتطوير صناعة السّيّارات الأوروبيّة. «فخلال مؤتمر برلين المنعقد بين العامين 1884 و1885، والذي حضرته أبرز القوى الاستعماريّة العالميّة، حصلت بلجيكا على حصّتها من (الكعكة الإفريقيّة)، ووُضعت ما عرف رسميًّا بدولة الكونغو الحرّة تحت نفوذ الملك البلجيكيّ، ليوبولد الثّاني، الذي عمد إلى استغلال ثروات الكونغو من العاج والمطّاط لإرساله إلى مصانع السّيارات الأوروبيّة. ومن أجل توفير يد

1- Mark Langan, Neo-Colonialism and the Poverty of Development in Africa, (Cham: Palgrave Macmillan, 2018), p.157.

(ذكره يونس بلفلاح، المقاربة الفرنسية الجديدة في إفريقيا، مركز الجزيرة للدّراسات، 14 فبراير/ شباط 2018).

2- عربية Independent 25/5/2021.

عاملة كافية لاستخراج المطّاط، استعبدت بلجيكا سكّان الكونغو. ومارست فرق مسلّحة القتل والتّرهيب لإجبار السّكّان على العمل في مجال استخراج المطّاط، وفرضت السّلطات البلجيكيّة ضرائب قاسية عليهم. وأمام عجزهم عن الدّفع، فقد الكونغوليّون أراضيهم قبل أن يجدوا أنفسهم في النّهاية عبيدًا. ومن ممارسات بلجيكا الوحشيّة أنّها عمدت إلى بتر يد كلّ كونغوليّ يتقاعس في عمله. وبسبب سياسة الإدارة السّيّئة، عانت الكونغو من مجاعات عدّة. وأدّت السّياسة البلجيكيّة المعتمدة في الكونغو منذ العام 1885 إلى وفاة حوالي 10 ملايين كونغوليّ؛ أي ما يعادل ثلث سكّان البلاد. وبسبب انتشار ظاهرة قطع الأيادي، لقّبت الصّحف العالميّة الكونغو بأرض الأيادي المقطوعة»[1]. لكن، في المقابل، استمرّت صناعة السّيّارات الأوروبيّة في التّقدّم والازدهار!!

التّقدّم والاستعلاء الكولونياليّ

عندما خرج الغرب من حدوده الجغرافيّة ليحتلّ بلدانًا أفريقيّة وعربيّة وإسلاميّة كان يستند لتبرير هذا الاحتلال إلى «عقيدة الاكتشاف» من جهة، وإلى استعلاء ثقافيّ حضاريّ «إنسانيّ»، بعدما عدّ الغرب نفسه، ما بعد النّهضة والتّنوير، في ذروة ما بلغته البشريّة والحضارة الإنسانيّة من تقدّم وعلوّ.

صاغت الكنيسة، منذ مئات السنين، «عقيدة الاكتشاف» التي تتيح للمحتلّ «قانونيًّا» مصادرة الأراضي التي تصل إليها جيوشه. ويبدو أنّ هذه العقيدة كانت، بشكل أو بآخر، استعادة «لمبدأ حقّ الغزو» (right of conquest) في القرنين الثّاني عشر والثّالث عشر، و«الذي يعني حقّ احتلال أراضي الغير، واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة»[2]. وبموجب عقيدة «الاكتشاف»، تقع ملكيّة الأراضي على عاتق الحكومة التي سافر رعاياها إلى منطقة لم يكن سكّانها من رعايا ملك مسيحيّ أوروبيّ ثمّ احتلّوها، واستخدمت هذه العقيدة بشكل أساسيّ لدعم القرارات التي تبطل أو تتجاهل حيازة السّكّان الأصليّين للأرض لصالح الحكومات الاستعماريّة/ الإمبرياليّة الحديثة.

1- طه عبد الرحمن الناصر، كيف حوّلت بلجيكا الكونغو إلى أرض الأيادي المقطوعة؟، موقع العربيّة 20/5/2020.

2- العكش، مرجع سابق، ص 89.

وأصدرت الملكيّات الأوروبيّة «مبدأ الاكتشاف» لإضفاء الشّرعيّة على استعمار الأراضي خارج أوروبا. وقد بيَّن منتصف القرن الخامس عشر ومنتصف القرن العشرين أنّ هذه الفكرة سمحت للكيانات الأوروبيّة بالاستيلاء على الأراضي التي يسكنها السّكّان الأصليّون، تحت ستار الاكتشاف. كما أعلنت «معاهدة توردیسیلاس»، في العام 1494، إمكانيّة استعمار الأراضي غير المسيحيّة فقط بموجب «عقيدة الاكتشاف».

وفي العام 1792، ادّعى وزير الخارجيّة الأمريكيّ «توماس جيفرسون» (Thomas Jefferson) أنّ «عقيدة الاكتشاف» الأوروبيّة هي القانون الدّوليّ في معاملة الشّعوب الأصليّة. وبذلك، يمكن للأمّة المكتشِفة أو خليفتها فقط أن تستحوذ على الأرض من السّكّان الأصليّين عن طريق الغزو أو الشّراء. لاحقًا، أُدينت «عقيدة الاكتشاف» بشدّة؛ لكونها غير عادلة اجتماعيًّا، وعنصريّة، وتنتهك حقوق الإنسان الأساسيّة. إذ أدان منتدى الأمم المتّحدة الدّائم، المعنيّ بقضايا الشّعوب الأصليّ (UNPFII)، مبدأ الاكتشاف لانتهاكه حقوق الإنسان (أيّ السّكّان الأصليّين).

كما كانت «عقيدة الاكتشاف» وتأثيرها الدّائم على الشّعوب الأصليّة والحقّ في الانتصاف من الغزوات الماضية، هي الموضوع الخاصّ لمنتدى الأمم المتّحدة الدّائم، المعنيّ بقضايا الشّعوب الأصليّة، والذي عقد في الفترة الممتدّة من 7 إلى 18 مايو من العام 2012، والذي دعا إلى إنشاء آليّة للتّحقيق في مطالبات الأراضي التّاريخيّة، مع ملاحظة أنّ «مبدأ الاكتشاف» قد استخدم لقرون لمصادرة أراضي السّكّان الأصليّين وتسهيل نقلهم إلى الأمم المستعمرة أو المسيطرة.

كما أصدر المؤتمر العامّ للكنيسة الأسقفيّة، والذي عقد في 8 ـ 17 أغسطس من العام 2009، قرارًا رسميًّا ينكر «عقيدة الاكتشاف»، ويدعو الموحّدين الكونيّين إلى دراسة هذه العقيدة، وإلغاء وجودها من السّياسات والبرامج واللّاهوت الحاليّة وهياكل التّوحيد الكونيّة. وفي العام 2013، في سينودسها العام التّاسع والعشرين، حذت كنيسة المسيح المتّحدة حذوها في رفض هذا المذهب في تصويت شبه إجماعيّ[1].

هكذا، عدّ الغربيّون احتلال شعوب أفريقيا والهند «ذات الأديان المتخلّفة والعادات البائسة» مهمّة إنسانيّة. وعندما أتوا إلى العراق ومصر ولبنان وسوريا

1- رند عاتوم ما هي عقيدة الاستكشاف؟ 27/1/2021.
/https://e3arabi.com/political-science

وفلسطين والأردن والجزائر، كرّروا سرديّة «التّمدين» الإنسانيّة نفسها، لينقلوا شعوب هذه البلدان من «البداوة إلى الحضارة». وتحوّل «التّمدين» في القرن العشرين إلى «الدّفاع عن الدّيمقراطيّة» وعن «حقوق الإنسان»، لتبرير احتلال أفغانستان في العام 2001 والعراق في العام 2003.

ومع ذلك، يشكو الغرب في بدايات احتكاكه بالشّعوب غير الغربيّة لاستعمارها من أن بعض هذه الشّعوب لا يمكن تمدينه؛ «مثل الصّينيّين واليابانيّين والمصريّين الذين يلهثون في مؤخّرة هذا التّطوّر، ومن أنّ بعضها لا يستطيع أن يقلّد المتحضّرين ويتعلّم منهم إلّا بالقدر الذي تستطيعه البهائم. فأيّ كيمياء تستطيع تغيير طبيعة دمهم؟ كيف يمكن بطرفة عين انتشالهم ورفعهم إلى المستوى الرّفيع الذي تطلّب منّا ألف سنة لجعلنا على ما نحن عليه الآن، نحن الأنكلوساكسون»[1].

عن هذا الاستعلاء الغربيّ يتساءل الملاكم الشهير «محمّد علي كلاي»، في مقابلة له انتشرت بشكل واسع: «لماذا كلّ شيء جيّد يجب أن يكون أبيض، وكلّ ما هو أسود شرّير؟ ولماذا المسيح أبيض، ومريم بيضاء، والملائكة بيض، وأصحاب المسيح في العشاء الأخير كلّهم من البيض؟». وحتّى «طرزان»، الأسطورة، تقدّمه السّينما الأميركيّة لنا ببشرته البيضاء وعيونه الزّرقاء، بصورة البطل الذي يمتلك القدرة على التّحدّث مع الحيوانات في حين أنّ الأفارقة هناك منذ مئات السّنين ولا يعرفون التحدّث إليها. كان طرزان يضرب كلّ الأفارقة ويهزمهم ويكسر فكّ الأسد، في حين لا يملك أيّ أفريقيّ آخر مثل هذه المقدرة!!

لكن، لا يبدو أنّ مهمّة طرزان الأسطورة في الأدغال قد انتهت. فها هو «جوزف بوريل» (Josep Borrell)، منسّق الاتّحاد الأوروبيّ للشّؤون الخارجيّة، يستعيد هذه المهمّة في خطابه في افتتاحيّة الأكاديميّة الدّيبلوماسيّة الأوروبيّة ببلجيكا، في 19/10/2022، عندما يصف أوروبا بـ«الحديقة»، وبقيّة العالم بـ«الأدغال». إنّ «أوروبا حديقة، لقد بنينا حديقة، أفضل مزيج من الحرّيّة السّياسيّة والرّخاء الاقتصاديّ والتّرابط الاجتماعيّ استطاعت البشريّة أن تبنيه. لكنّ بقيّة العالم ليس حديقة تمامًا؛ أغلب بقيّة العالم هو أدغال». وأضاف «بوريل»: «إنّ الأدغال يمكن أن تغزو الحديقة، وعلى البستانيّين أن يتولّوا أمرها، لكنّهم لن يحموا الحديقة ببناء الأسوار. إنّ حديقة صغيرة جميلة محاطة بأسوار عالية لمنع الأدغال لن تكون حلًّا

1- العكش، مرجع سابق، ص 235 - 236.

(...). على البستانيّين أن يذهبوا إلى الأدغال، على الأوروبّيّين أن يكونوا أكثر انخراطًا مع بقيّة العالم، وإلّا فإنّ بقيّة العالم سوف تغزو أوروبا».

أمّا الأسوأ ممّا قاله «بوريل» في بيان اعتذاره الذي نُشر على موقع الاتّحاد الأوروبيّ، فهو أنّ استعماله مصطلحيّ «الحديقة» و«الأدغال» ليس من اختراعه، إنّما كان هذا المفهوم حاضرًا في النّقاشات الأكاديميّة والسّياسيّة منذ عقود[1]!

يبدو أنّ مفهوم الحديقة والأدغال الذي أشار إليه منسّق الاتّحاد الأوروبّيّ للشّؤون الخارجيّة ليس جديدًا أو طارئًا؛ بل يكمن في الأعماق الدّفينة للثّقافة الأوروبيّة. فحتّى هيغل (Hegel)، الفيلسوف الشّهير (1770ـ1831)، يجزم «فقط في الغرب تقف الحرّيّة. ففي الغرب يدخل الفكر في ذاته ويصبح فكرًا كونيًّا، وبذلك تنصّب أوروبا نفسها مركزًا تدور في فلكه آلاف السّنين من الحضارات الشّرقيّة التي تنتظر ولادة المعجزة الإغريقيّة ووريثها التّنويريّ الأوروبيّ.

ومن اللّافت أن «يأبى هيغل تدنيس تاريخ البشريّة بمجتمعات داكنة البشرة ومصنّفة دون (الاستبداد الشّرقيّ)، مدّعيًا أنّ أفريقيا (لا تنتمي إلى تاريخ العالم). وبما أنّ أفريقيا أرض تدبّ فوقها كائنات غير عاقلة، تعيش ولكنّها لا تتطوّر، فإنّها تشكّل فرصة ذهبيّة للتّوسّع الألمانيّ الذي سينعم عليها بالتّطوّر»[2].

وحتّى الماركسيّة نفسها التي تنتقد النّظام الرّأسماليّ كانت تعتقد بدورها بالتّقدّم الغربيّ. ويفاجئنا «ماركس» (Karl Marx) (1818-1883) برؤيته التي لا تختلف جوهريًّا عن رؤية «هيغل». يقول «ماركس»، في مقالة له نشرت في مجلّة أميركيّة عن «سياسة روسيا التّقليديّة إزاء السّلطنة العثمانيّة»: «إنّ القسطنطينيّة هي المدينة الخالدة، إنّها روما الشّرق. ففي القسطنطينيّة اختلطت الحضارة الغربيّة بالبربريّة الشّرقيّة، وقد تكشّف لاحقًا هذا الاختلاط مع البربريّة الشّرقيّة، تحت السّيطرة التّركيّة، لدرجة أنّ المدينة كمركز لإمبراطوريّة تيوقراطيّة أصبحت تشكّل سدًّا منيعًا في وجه التّقدّم الأوروبيّ»[3].

1- موقع الجزيرة 19/10/2022.

2- العكش، مرجع سابق، ص 85.

3- G.W.F. Hegel: Leçons sur l’histoire de la philosophie. Tome 1. Paris: Vrin 1971. (ذكره سهيل القش، المرآة المتكسرة تشظّي الكيان اللبناني، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، 2022، ص 71 - 102).

يستخدم «ماركس» مصطلحات «الحضارة الغربيّة» و«البربريّة الشّرقيّة» و«السّدّ المنيع في وجه التّقدّم الأوروبّيّ». إنّها المصطلحات نفسها عن الحديقة والأدغال التي يستعيدها من المخزون الثّقافيّ الغربيّ منسّقُ الاتّحاد الأوروبّيّ للشّؤون الخارجيّة. إنّه الخطاب الكولونياليّ الغربيّ الذي يقدّم رؤية متعصّبة وصورة نمطيّة عن الشّرق تجعله في خانة التّابع والهامشيّ للمستعمِر، لتأبيد هيمنته ومركزيّته. كما يقدّم هذا الخطاب صورة المستعمَر «التّابع» بوصفها غير قابلة للتّقدّم في التّاريخ، لتحقيق رغبة استعلاء الذّات الاستعماريّة التي توصف بأنّها ذات قدرة كليّة وذات حضور كلّي في التّاريخ، كما وصفها إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق.

«إنّها الكبرياء التي تتكلّم؛ كبرياء الغرب الأوروبيّ الذي لا يردع يقينه أيّ شكّ، والذي يوهمنا أنّ التّاريخ الذي يعود إلى آلاف السّنين في كلّ من الصّين ومصر يمكن اختزاله إلى بضعة أحداث، بينما يجري تضخيم الأحداث في الغرب مع لوثر ونابليون بشكل يجعل من تاريخ بضعة عقود أشباحًا تحجب عنّا رؤية تاريخ الحضارات الشّرقيّة الممتدّ إلى آلاف السنين»[1].

تقدّم الكآبة

لم يقتصر الاحتلال في الواقع على وضع اليد على الثّروات، ولم يكتفِ باستغلالها؛ بل ترك الشّعوب التي احتلّها في حال من الضّعف والشّقاء، ولم يقدّم لها أيّ مساهمة يمكن أن تنهض بها من «التّخلّف» إلى «التّمدّن».

لقد ازداد الفقراء فقرًا في الهند تحت الاحتلال البريطانيّ. ولم تنقل بريطانيا إلى الهنود التّقدّم الذي بلغته، والذي أشاد بمآثره الشّيخ محمّد عبده في فرنسا. «وخلال تاريخ الحكم البريطانيّ بأكمله في الهند، والذي استمرّ لمدّة 200 عام، لم تطرأ زيادة في دخل الفرد تقريبًا. بل في الواقع، خلال النّصف الأخير من القرن التّاسع عشر ـ الذي شهد ذروة التّدخّل البريطانيّ ـ انهار الدّخل في الهند بمقدار النّصف. كما انخفض متوسّط العمر المتوقّع للهنود بمقدار الخمس، من العام 1870 إلى العام 1920. وتوفّي عشرات الملايين دون داعٍ، بسبب المجاعة النّاجمة عن السّياسات المتّبعة»[2]!!

1- القش، المرجع نفسه، ص 71؛ وكذلك كتاب إدوارد سعيد «الاستشراق».

2- جيسون هيكيل، مرجع سابق.

حصل الأمر نفسه في الجزائر بعد خروج الاحتلال الفرنسيّ الذي دام مائة وثلاثين عامًا، وكذلك في باقي بلدان أفريقيا التي خضعت للاحتلال الفرنسيّ. وعندما خرجت أميركا من أفغانستان في العام 2022، بعد احتلالها لمدّة عشرين عامًا، كان الشّعب الأفغانيّ في حال يرثى لها من الفقر ومن تراجع القدرات الاقتصاديّة والماليّة والتّنمويّة. بعد عشرين عامًا من الاحتلال الأميركيّ بذرائع دعم المرأة ونشر الدّيمقراطيّة ومحاربة الإرهاب والتّخلّف، لم تتقدّم أفغانستان لا تنمويًّا ولا تعليميًّا ولا اجتماعيًّا. ولم يدعم الأميركيّون أيًّا من المؤسّسات التي يفترض أن تساهم في هذا التّقدّم.

لقد ازداد الفقراء فقرًا على الرّغم من التّقدّم العلميّ والتّكنولوجيّ، ومن تطوّر النّظام الاقتصاديّ الرّأسماليّ العالميّ وتوسّعه إلى جهات العالم الأربعة. ولم يحلّ النظام الرّأسماليّ، بما هو نتاج للتّطوّر والتّقدّم الغربيّين، مشكلة الفقر، لا في داخل المجتمعات الغربيّة نفسها، ولا حتّى في باقي دول العالم التي احتلّها الغربيّون وادّعوا أنّهم ذهبوا إليها لتمدينها.

وعندما نقول أنّ النظام الرّأسماليّ يعمل على أسس حرّيّة الاقتصاد وعدم وضع العراقيل، وترك النّاس تعمل، والرّبط بين هذه الحرّيّة وبين الرّخاء الاقتصاديّ، نكتشف بمرور كلّ هذه العقود من السّنين أنّ نموّ الرّأسماليّة قد حقّق الرّخاء لطبقة معيّنة من أصحاب الرّأسمال، في حين ازداد فقراء العالم فقرًا. وقد تبنّت الأمم المتّحدة منذ عقود برامج للقضاء على الفقر؛ لكنّها لم تنجح ولم تؤدِّ إلى أيّ تغيير حقيقيّ؛ بل استمرّ الفقراء في الازدياد. وقد وُضعت في البداية الخطط من العام 1950 إلى العام 2000، ثمّ للعشرين سنة التّالية إلى العام 2020، وسيكون القضاء على الفقر بجميع أشكاله من أولويّات الأهداف السّبعة عشرة لخطة التّنمية المستدامة للعام 2030.

في الإطار نفسه، أعلنت الجمعيّة العامّة يوم السّابع عشر من تشرين الأوّل/أكتوبر اليوم الدّوليّ للقضاء على الفقر. لكنّ ذلك كلّه لم يغيّر واقع الفقر؛ «فما تصل نسبته إلى 42 في المائة من السّكّان في أفريقيا، جنوب الصّحراء الكبرى، ما زالوا يعيشون تحت خطّ الفقر. ويعيش واحد من كلّ خمسة أطفال في فقر مدقع، ويوجد تداعيات للآثار السّلبيّة للفقر والحرمان في السّنوات الأولى يمكن أن تستمرّ مدى الحياة. وفي العام 2016، لم يستفد 55 في المائة من سكّان العالم، حوالي

4 مليارات شخص، من أيّ شكل من أشكال الحماية الاجتماعيّة»[1].

وفي حلقة نقاش عقدتها منظّمة الأغذية والزّراعة للأمم المتحدّة في العام 2021، أشار خبراء مشاركون إلى قضيتيّ نهب الدّول الأفريقيّة وواقع الفقر العالميّ النّاتج عن سياسات القطاع الخاصّ وتكديس الأثرياء للثّروات وتهرّبهم من دفع الضّرائب. «لدينا نظام غذاء عالميّ، مرتكز على شركات متعدّدة الجنسيّة ضخمة، وعلى الأرباح الخاصّة، ومبنيّ على إنكار حادّ لحقوق الفقراء. فمن بين كلّ 7 أميركيين ثمّة واحد جائع الآن، ولا أحد يبالي، الفقراء يهتمّون بالتّأكيد. لكنّ الحزب السّياسيّ كلّ ما يهمّه هو تخفيض الضّرائب عن الأثرياء وإعاقة أيّ حلّ. لهذا؛ نعيش في عالم قاسٍ بحقّ. القطاع الخاصّ لن يحلّ هذه المشكلة. لماذا لا تسير الأمور على ما يرام؟ لأنّ الأثرياء يكنزون كلّ شيء»[2].

تجاوزت لاإنسانيّة التّقدّم مستويات الفقر وأعداد الفقراء، والبعد الاقتصاديّ، إلى كآبة إنسانيّة غير مسبوقة في تاريخ الغرب نفسه. فلم تكن وعود الحياة الحديثة بالرّفاه والعمل، في المدن الصّناعيّة في الغرب، متاحة للنّاس كافّة كما توهّم النّازحون إليها. ولم يكن العمل متوفّرًا لكلّ من أتى من الأرياف. كما كان العمل في المصانع، لمن أُتيح له ذلك، يفتقد إلى أدنى شروط السّلامة الصّحّيّة. وكان المستوى الاجتماعيّ يتطلّب أن تأتي الأسرة كلّها إلى المصنع: المرأة والرّجل والأطفال؛ لأنّ كلّ ماكينة في مصانع تلك المرحلة كانت تحتاج إلى عشرات العاملين لتشغيلها، كما عبّر عنها «شارلي شابلن» ببراعة في فيلم «أضواء المدينة».

لم يكن بإمكان النّازحين الذين لم يجدوا عملًا أن يدفعوا بدلات إيجار شقق يسكنون فيها، ما أدّى إلى تراجعهم نحو أطراف المدينة ليتشّكل ما بات يُعرف بـ«الضّواحي»؛ أي الوجه المُظلم للتّقدّم، حيث يعيش المهمّشون والباحثون عن عمل والفقراء الذين تحدّث عن تفاصيل تعاستهم «فيكتور هوغو» (Victor Hugo) في رواية «البؤساء»، والتي لم تكن سوى بداية مآسي الحياة الحديثة وليس حياة الضّواحي فقط. «فالسّكينة الظّاهرة لضواحي المدن تكذّبها معدّلات العنف المنزليّ. والمولات التّجاريّة المتخمة بالبضائع يرتادها أناس بالكاد يحتملون

1- موقع الأمم المتّحدة.

2- حلقة نقاش بعنوان: «الإجراءات اللّازمة لتحقيق طموحنا للعام 2030»، في 26/7/2021، روما، موقع منظّمة الأغذية والزّراعة للأمم المتّحدة.

البقاء في منازلهم. وحياة المعوزين تثور فجأة في حياة الموسرين على شكل جرائم واعتداءات عشوائيّة. ثمّ إنّ وعينا بهذه المواجهات وهذه الفوضى يزداد حدّة بفعل أنظمة الاتّصالات الحديثة»[1].

ولم تغيّر الاكتشافات العظيمة في العلوم الفيزيائية عمل المصانع وإنتاج الشّركات فقط؛ «بل غيّرت تصوّرنا عن الكون وموضعنا فيه. وتحوّلت المعرفة العلميّة إلى التّقنيّة، صانعةً بيئات إنسانيّة جديدة وملحقةً الدّمار بالقديمة، مسرّعة إيقاع الحياة، وقطعت ملايين البشر عن عادات أسلافهم لتقذف بهم عبر العالم وسط أشكال جديدة من الحياة. وأخيرًا، يحمل هؤلاء النّاس ومؤسّساتهم ويسوقهم معًا سوق عالميّة رأسماليّة دائمة التّوسّع وشديدة التقلّب»[2].

وقد جاء القرن العشرون في الواقع ليمزّق تفاؤل الاكتشافات العظيمة وإنسانيّة عصر النّهضة ووعود الحداثة والسّعادة، «عبر الحربين العالميّتين، ومعسكراتِ الموت، وفرق الموت، وعبر العسكرة، وخطر الفناء النَّوويّ، وتجربته بالفعل في ناكازاكي وهيروشيما؛ بل إنَّه تضمّن، وعلى نَحْوٍ أسوأ، أن يكون مشروع التَّنوير قد حكم عليه أن يتحوَّل إلى عكس ما يعلنه. وأنْ يُحِيلَ مطلب التَّحرُّر الإنسانيّ إلى نظام اضطهادٍ عالميٍّ باسم تحرير البشر»[3]. وقد زاد العلم الحروب الحديثة إضرامًا وضَراوة، كما أكّدته مصالح الرّأسماليّين والاستعمار التي أخضعت تطبيقات العلم لطلب المزيد من الأرباح والقضاء على كلّ القيم النّبيلة في الإنسان[4].

وإذا وضعنا أمام ناظرينا ما نتج من الحربين العالميَّتين؛ من أزمات اقتصاديّة، ومن دمارٍ ومآسٍ وملايين الضَّحايا، وإغراقِ العالم في بحرٍ من الدّماءِ لم يُعْرَفْ له حتَّى ذلك الحين مثيل، والتَّهديد بالفناء النَّوويّ، «أدركنا حجم الصَّدمة النّفسيّة الَّتي أُصِيبَ بها الفرد الأوروبيّ، والَّتي أصبحت مادَّةً أساسيَّةً في الدِّراساتِ الإنسانيّة، بحثًا عن ذلك التَّوازُن المفقودِ بين الإنسان وذاتِه، وبينه وبين المجتمع. واقترن

1- تود سلون، مرجع سابق، ص 35.

2- المرجع نفسه، ص 48 - 49.

3- ديفيد هارفي، حالة ما بعد الحداثة، بحث في أصول التغيير الثَّقافي، المنظَّمة العربيَّة للتّرجمة، بيروت 2005، ص 31.

4- صلاح قانصو، الموضوعيّة في العلوم الانسانيّة، دار التّنوير، بيروت، الطّبعة الثّانية، 1984، ص 17.

بتلك الكارثة انهيار للثّقة في التّقدّم، ونُمُوّ جوّ من الشَّكِّ والارتياب لم يفقْ منه العالم تمامًا حتَّى وقتنا هذا»[1].

هكذا تحطَّم ما تبقَّى من ذلك «الوعد العظيم» الَّذِي دغْدَغَ الأحلام مع بدايةِ عصر العلم والاكتشافات، وتسيّد العقل، واستبعاد الدِّين. وباتت مقولات مثل «موت الإله» و«موت الإنسان» و«نهاية الغرب» شائعة في الأدبيات الفكريّة والفلسفية والاجتماعيّة الغربيّة.

وها هو الغرب يواجه مجدّدًا، في القرن الواحد والعشرين، أزمة إنسانيّة مع ما عُرف بـ«جائحة كورونا»، ستضاف إلى مبرّرات انهيار هذه الثقة بالتّقدّم وبـ «وعد النّهضة العظيم». فقد انتشر هذا الوباء (كوفيد 19) بشكل واسع ومفاجئ بين العامين 2020 و2022، وهدّد صحّة عشرات الملايين في العالم بالموت أو بالإصابة.

كانت إيطاليا، وهي إحدى دول الاتّحاد الأوروبي وعضو في حلف النّاتو، من أكثر الدّول تضرّرًا وتعرّضًا للإصابات والوفيّات من هذا الوباء. وعندما طلبت المساعدة لم يمدّ لها أحد يد العون، لا من دول الاتّحاد الأوروبّيّ ولا من دول حلف النّاتو، ولم يقدّم الغرب «المتقدّم» برمّته أيّ عون لإيطاليا. «وعندما طلبت مساعدة ماليّة وهي تئنّ تحت وطأة الجائحة لم تجد إلّا الصدّ من رئيسة المفوّضيّة الأوروبيّة، أورسولا فون دير لاي (Ursula von der Leyen)»[2].

وحتّى فرنسا، وهي أيضًا عضو في الاتّحاد الأوروبّيّ وفي حلف الناتو، عندما طلبت شراء عشرات آلاف الكمّامات من الصّين، اعترضت الولايات المتّحدة هذه الصّفقة واشترتها لنفسها، ولم تسمح بوصولها إلى فرنسا.

تصرّفت دول «التّقدّم» الغربيّ وفاق عقيدة «المنفعة» أو «الذّاتانية» التي بني عليها النّظام الرّأسماليّ؛ فلم ترحم حتّى أطرافها نفسها. ولذلك؛ لن تتردّد الولايات المتّحدة الأميركيّة في وضع اليد على الكمّامات التي تحتاج إليها فرنسا إذا كانت مصلحتها تقتضي ذلك. ولم يقتصر التّنافس الغربيّ «الذّاتانيّ» على إجراءات الحماية من الوباء؛ بل اشتدّ في تسويق اللّقاح الذي سيُعتمد لمواجهة هذا الوباء.

كان من المتوقّع أو من المفترض أن تجتمع مراكز البحث العلميّ المتخصّصة

1- M.Chaulanges، مرجع سابق، ص 45 - 47.

2- عربي BBC News 2/4/2021.

في دول العالم المتقدّم للبحث في كيفيّة إيجاد هذا اللّقاح. لكنّ ما حصل فعليًّا، كان التّنافس بين الدّول التي سارعت كلّ واحدة منها إلى إنتاج اللّقاح الخاصّ بها لتسويقه ولتحقيق أكبر قدر من الرّبح قبل الآخرين. وهكذا، رُوّج للقاح بريطانيّ، ثمّ ألمانيّ فأميركيّ، وروسيّ وصينيّ... قبل أن تعمد دول أخرى مثل إيران والهند إلى إنتاج لقاحاتها الخاصّة أيضًا. والأغرب أنّ منظّمة الصّحّة العالميّة استبعدت اللّقاحين الرّوسيّ والصّينيّ، ولم تعترف بهما ولا بشهادة التّلقيح الصّادرة عنهما. وكذلك فعلت دول الغرب في أميركا وأوروبا.

أمّا الأسوأ من هذا البعد التّنافسي في التّمييز السّياسيّ بين اللقاحات، فهو ما أثير حول فاعليّة هذه اللّقاحات الغربيّة نفسها، وطريقة كمّ الأفواه لعدم انتقاد هذه الفاعليّة أو التّشكيك فيها. وقد واجه مصنّعو لقاح فايزر اتّهامات جديّة، لم يتمكّنوا من الرّدّ عليها، بسبب الآثار الجانبيّة السّلبيّة التي نتجت عن جرعات هذا اللّقاح، أو بسبب فاعليّة اللّقاح نفسه في منع انتقال العدوى. كما تعرّضت إدارة تويتر بدورها إلى الاتّهام بحجب آراء أطبّاء انتقدوا اللّقاح وفاعليّته وتأثيراته الجانبيّة، بطلب من الإدارة الأميركيّة.

وقد اعترفت شركة الصّناعات الدّوائيّة الأمريكيّة (فايزر) أمام البرلمان الأوروبيّ بأنّها لم تختبر قدرة لقاح كورونا الخاصّ بها على منع انتقال العدوى قبل طرحه في السّوق. وفي جلسة استماع داخل الاتّحاد الأوروبيّ حول اختبار لقاح فايزر، طرح عضو البرلمان «روب روس»، على المسؤولة التّنفيذيّة في شركة فايزر «جانين سمال» سؤالًا عن اختبار لقاح الشّركة قبل طرحه في الأسواق. فأجابت بشكل واضح: «لا، كما تعلم كان علينا أن نتحرّك ونجاري سرعة العلم لفهم ما يحدث في السّوق». وقد وصف «روس» ما حصل بـ «الفضيحة والكذبة الرّخيصة» التي أجبرت الملايين من الأشخاص حول العالم على الحصول على اللّقاح. وقال: «نحن بحاجة إلى فهم سبب إلزام الاتّحاد الأوروبّيّ بشراء 1.8 مليار لقاح من فايزر، بغضّ النّظر عن الاحتياجات، وبصرف النّظر عمّا إذا كان لاعبون جدد أفضل قد دخلوا السّوق».

كما صرّح أحد الأطبّاء حول ما روّجت له شركة فايزر خلال الجائحة، أنّ «الغرض من جواز سفر اللّقاح كان إجبار النّاس على التّطعيم». وأنّ ما جرى كان فضيحة بكل المقاييس[1].

1- موقع الجزيرة 16/10/2022.

لقد جرى تقسيم عالميّ للشّعوب، ما من شأنه أن يشكّل خطرًا بأن ينقسم العالم على أساس قوميّة اللقاح، بدلًا من الضّرورة الطّبيّة[1]. لم يكن تعامل الغرب «المتقدّم» مع وباء كورونا إنسانيًّا أو أخلاقيًّا، لا مع شعوبه نفسها، ولا حتّى مع باقي العالم. كان التّنافس السّياسيّ-الاقتصاديّ الأنانيّ لجني المال وتكديس الثّروة هو الهدف، مثل ما كانت عليه بدايات صعود الرّأسماليّة التي كانت تؤكّد على الرّبح ثم الرّبح وعلى «دعه يعمل، دعه يمرّ».

توقّعات خائبة

«لقد تبخّر الوفاء والوعد بمجتمع ليبراليّ وفرص متكافئة للجميع؛ بل بات محكومًا على الأفراد الذين شكّلتهم العمليّات الاجتماعيّة للتّصنيع الرّأسماليّ بالاغتراب والاستغلال، على نحو يديم التّسلّط التّقليديّ السّافر للسّادة على عبيدهم أو للنّبلاء على رقيقهم. لقد مُزّقت الثّقافات كلّ ممزّق، وتصدّعت الأسر، وشتّت أممٌ بأكملها، إن لم تُقتل من الأصل. كلّ هذا من أجل الزّيادات غير الضّروريّة في مستوى عيش الطّبقة الموسرة. لقد سرى هذا العطب إلى سائر العالم في القرن التّاسع عشر، حين استمكن الاستعمار الأوروبيّ ممّا يُعرف اليوم بالعالم الثّالث. فما من أرضٍ حلّ فيها التّحديث إلّا وبذر فيها تعاطي المسكرات، وإدمان المخدّرات، والدّمار البيئيّ، والفوضى الثّقافيّة، والجريمة والعُصاب»[2].

وها هو القلق، على سبيل المثال، يمثّل إحدى أهمّ الظواهر التي نالت اهتمامًا بحثيًّا مكثّفًا في مجالات علم نفس الشّخصيّة وعلم النّفس الاجتماعيّ. «فقد نشر حتّى العام 2016 ما يزيد على مائة ألف ورقة بحثيّة عن مختلف الجوانب النّظريّة والتّقييميّة والجوانب الإكلينيكيّة المتعدّدة لهذا الموسوم بالقلق»[3]. لا، بل بات التّصنيع هو المحرّك الأوّل لمختلف المشكلات الاجتماعيّة التي ظهرت بالتّزامن مع الثّورة الصّناعيّة؛ من التوتّر، الاضطراب، السّخط، الانفصال، الاكتظاظ، الاحتشاد، التفكّك الأسريّ، زوال الوظائف الإنتاجيّة للأسرة، قطع الأواصر بين

1- العربي الجديد 3/5/2021.

2- تود سلون، مرجع سابق، ص 109 - 110.

3- موشي زيدنر وجيرالد ماثيوس، القلق، سلسلة عالم المعرفة، عدد 437 /2016، الكويت، ص 15 - 16.

الأفراد وبين النّظام الأبويّ، تدمير التّكافل الاجتماعيّ وتركيز السّلطة في أيدي ملاك وسائل الإنتاج[1].

يطرح مؤلف كتاب «حياة تالفة أزمة النّفس الحديثة» على طلّابه في حلقات دراسيّة عن «النّفس والمجتمع» السّؤال التّالي: «ما الذي تعتقد أنّه المشكلة الأساسيّة في الحياة الحديثة؟». كانت أبرز إجابات الطّلّاب على الشّكل الآتي:

- وتيرة التّغيير: الأمور تسير بسرعة شديدة؛ فبمجرّد أن تستقرّ على طريقة معينة لإنجاز الأمور فإنّها لا تلبث أن تتغير.
- انحدار اليقين والإيمان: من الصّعب أن يتيقّن المرء من معتقداته. ثمّة طرق عديدة جدًّا لرؤية العالم.
- التوقّعات الخائبة: ليست هذه هي الطريقة التي قصدتها لحياتي. اعتقدت أنّني ببلوغ هذه اللّحظة سأكون قد أنجزت كثيرًا ممّا كنت أؤمّله.
- انحدار الأخلاق: لم يعد أحد يحفل بالأخلاق؛ لا أحد يهتمّ بغيره، النّاس يسعون لأنفسهم فقط.
- أفول المعنى: أواجه مشكلة في العثور على معنى في ما أقوم به. تبدو الحياة خاوية. أشعر بالملل.

لم تكن هذه الإجابات تعني سوى أنّ الرّضى بات «سلعة نادرة» في تجربة «الحياة الحديثة»، بعدما تفاقم الشّعور بفقدان المعنى، وتقويض التّضامن، والتّأزّم النّفسيّ[2].

في هذا المجال، تشير دراسات علم الأوبئة المعنيّة بالصّحّة العقليّة «إلى أنّ معظم القاطنين في المجتمعات الصّناعيّة المتقدمة ميّالون، بطريقة أو بأخرى، إلى الإقرار بأنّنا ندفع الثّمن النّفسيّ لأسلوب الحياة الذي نصنّفه بأنّه حديث. ويُدفع هذا الثّمن بعملات عاطفيّة مختلفة، حسب الشّخصيّات والاتّجاهات الفرديّة: العجز عن التّركيز، القلق الغامض، النّزوة لإلحاق الأذى بالنّفس أو بالآخرين، الخوف في الشّوارع، فقدان الإيمان، الشّعور بأن لا شيء يستحقّ الإنجاز، تبلّد الفكر، الرّغبة في تعاطي المخدّرات، عادات العمل المهووسة، السّأم من الآخرين، الغربة والاغتراب، الاتّكال المفرط على آراء الآخرين، الوحدة والاكتئاب...».

1- تود سلون، مرجع سابق، ص 84 و89 و90.

2- المرجع نفسه، ص 142 و143.

لـم تسـلم الأسـرة بدورهـا مـن هـذا التفـكّك، ومـن فقـدان المعنـى، ومـن القلـق والسّـأم واللّاثبـات. فمـع قـدوم الرّأسـماليّة، أدّت التّغيّـرات المتنوّعـة فـي نمـط الإنتـاج الإقطاعـيّ، لا سـيّما الفصـل بيـن فضـاء المنـزل وفضـاء الإنتـاج، إلـى زعزعـة النّظـام الأبـويّ. وتراجعـت سـلطة الآبـاء فـي المنـزل، «مـا أدّى إلـى اسـتبعاد أن يكـون التّأديـب السّـلطويّ ضروريًّـا، وصـولًا إلـى أطروحـة (أفـول الأب). وبعـد أن كانـت الأسـرة هـي الواقـع، لـم تلبـث أن أصبحـت مثـالاً يُرجـى تحقيقـه»[1].

كانـت الأسـرة تتعـاون مـع الكنيسـة؛ لكـي تبقـى تلبيـة الحاجـات النّفسـيّة والجسـديّة والعاطفيّـة مـن خصوصيّـة المنـزل وتخضـع لقواعـد تهذيبيّـة صارمـة. لكـنّ التّغيّـرات فـي نظـام الحيـاة وفـي نظـام الإنتـاج تجـاوزا هـذه الخصوصيّـة، بحيـث باتـت هـذه الحاجـات تلبّـى فـي الفضـاء العـامّ خـارج المنـزل. كمـا باتـت، علـى سـبيل المثـال، مشـاغل النّسـاء المنزليّـة وإقبالهـنّ العاطفـيّ علـى الأطفـال مثاليًّـا ومحتقـرًا. هكـذا تنـزع الرّأسـماليّة إلـى اختـزال العلاقـات الاجتماعيّـة، بهـدم القواعـد التّقليديّـة التـي كانـت تقيّـد العلاقـات الاجتماعيّـة والإنتـاج وضبطهـا؛ مثـل أنظمـة القرابـة، والأبنيـة الطّبقيّـة، والمعتقـدات الدينيّـة، والتّقاليـد الشّـعبيّة، والأعـراف، وهلـمّ جـرّا.

ولهـذا السّـبب، كان مـن أهـمّ أهـداف الصّعـود الرّأسـماليّ عـدم الثّبـات الـذي كانـت تمثّلـه الأسـرة والكنيسـة؛ مـا أدّى فـي نهايـة المطـاف إلـى الإطاحـة بهمـا كقوّتـي ضبـط. وبمسـعاها السّـاخر فـي تجريـد العالـم الحديـث مـن القداسـة، تقـوم الرّأسـماليّة «بنقـد الخرافـات والسّـلطة الكنسـيّة، وتحـدّي القيـم الوالديّـة الاعتباطيّـة. إنّ الرّأسـماليّة تنشـر علاقـات السّـوق فـي كلّ مـكان، وتصنـع انقسـامًا مضاعفًـا فـي العمـل، لتُنتـج فردًا مـزوّدًا بـ(أنـا)؛ أنـا عُليـا، إضافـة إلـى التّشـظّي الاجتماعـيّ والنّفسـيّ»[2].

هـذا مـا دفـع مؤلّـف كتـاب «حيـاة تالفـة» إلـى التّسـاؤل: لمـاذا تمـادى العلمـاء الاجتماعيّـون الغربيّـون إلـى هـذا الحـدّ فـي عـزل عمليّـة التّصنيـع عـن آثارهـا الضّـارة؟

لـم يتمكّـن التّقـدّم فـي وسـائل النّقـل والتّواصـل والخدمـات وفـي صناعـة الـدّواء والغـذاء والأزيـاء والعطـور والسّـلاح، مـن أن يحجـب «الآثـار الضّـارّة» للاحتـلال، ونهـب الثّـروات، وتفاقـم الفقـر، وشـيوع الاكتئـاب، وفقـدان معنـى الحيـاة، وعيـش

1- تود سلون، مرجع سابق، ص102.

2- المرجع نفسه، ص249.

الإنسان في ما أطلق عليه «مجتمع الاستهلاك المريض»[1].

لقد بيّنت تجربة الغرب الحديثة أنّ مقياس التّقدّم لا يُختزل بما بلغه أيّ مجتمع من تطوّر في استخدام التّقنيّات، أو في تطوير الصّناعات، أو في أنماط الاستهلاك كما تروّج بعض النّظريّات التّنمويّة والاجتماعيّة.

إنّ مقياس التّقدّم الإنسانيّ هو في الهدف الذي يُراد تحقيقه، وليس الأدوات المستخدمة، والتي قد تكون بسيطة أو متطوّرة. فالولايات المتّحدة، على سبيل المثال، تجذب العقول العلميّة المتقدّمة والمبدعة من أنحاء العالم ومن الجنسيّات كافّة، ويعمل هؤلاء في مجالات البحث والاختراع والتّقدّم على المستويات النّظريّة والعمليّة. أمّا أهداف هذا التّقدّم العلميّ ونتائجه وكيفيّة استخدامه وأوان استثماره، فتقرّره السّياسات والمصالح الأميركيّة.

هل يبقى الغرب، بعد كلّ تلك «الآثار الجانبيّة الضّارّة» للتّقدّم، أنموذجًا كما رآه الشّيخ محمّد عبده في ذلك الزّمن الذي زار فيه باريس ورأى فيها ما رأى وما أحبّه وأعجبه؟ ولو كان الشّيخ اليوم على قيد الحياة وزار باريس مجدّدًا، فهل كان سيرى فيها «إسلامًا» أم «إسلاموفوبيا»؟

في السّطور الأخيرة، يروي «أندريه فليتشك» (Andre Vltchek)، الفيلسوف والرّوائي التّشيكيّ/الأميركيّ، كيف خُدع هو وجيل كامل من الشّباب في تشيكوسلوفاكيا بوهم التّقدّم الغربيّ وعدم الرّضى، بسبب الدّعايات التي مورست ضدّ النّموذج الاشتراكيّ في الاتّحاد السّوفياتيّ. ليكتشف «فليتشك»، بعد فوات الأوان، كما يقول، كيف أعمتهم الدّعاية الغربيّة، وكيف أنّهم اعتقدوا أنّهم عندما حطّموا جدار برلين قد اقتحموا باب الحرّيّة، فإذا بهم مجرّد سلع في السّوق، وكيف أنّهم باعوا الاتّحاد السّوفياتيّ وتشيكوسلوفاكيا، مقابل أكياس التّسوّق البلاستيكيّة.

«لقد ولدت في لينينغراد، أمّي نصف روسيّة ونصف صينيّة (فنّانة ومهندسة معماريّة)؛ كان والدي عالمًا نوويًّا. كانت طفولتي مشتركة بين لينينغراد وبيلسن. بيلسن مدينة صناعيّة تقع في الطّرف الغربيّ ممّا كان يدعى تشيكوسلوفاكيا. كانت المدينتان مختلفتين، كلّ منهما تمثّل شيئًا أساسيًّا في التّخطيط الشّيوعيّ، وهو نظام

1- راجع: Philippe Moati, La Société Malade de l'hyperconsommation, Edt. Odile Jacob, France 2016.

قام دعاة الغرب بتعليمنا أن نكرهه. ولينينغراد هي واحدة من أكثر المدن إثارةً للدّهشة في العالم، حيث تضمّ أكبر المتاحف ومسارح الأوبرا والباليه والسّاحات العامّة. أمّا بيلسن فمدينة صغيرة الحجم، ويبلغ عدد سكّانها 180.000 نسمة فقط. ولكن، عندما كنت طفلًا، كانت تضمّ العديد من المكتبات الممتازة ودور السّينما ودار الأوبرا والمسارح الطّليعيّة والمعارض الفنّيّة وحديقة حيوانات مخصّصة للبحث وللأشياء التي لا يمكن أن نجدها، كما أدركت لاحقًا بعد فوات الأوان، حتّى في المدن الأميركيّة التي يبلغ عدد سكّانها مليون نسمة.

كان في المدينتين (الكبيرة والأخرى الصغيرة)، وسائل نقلٍ عامٍّ ممتازة، وحدائق واسعة وغابات في أطرافها. كان في بيلسن عدد لا يحصى من مرافق رياضة التّنس، وملاعب كرة القدم، وحتّى ملاعب الرّيشة الطّائرة، وجميعها كانت مجّانية. كانت الحياة جميلةً، وكان لها معنًى؛ كانت غنيّةً؛ ليس بالمال، ولكنّها غنيّة على الصّعيد الثّقافيّ والفكريّ والصّحّي. كانت المعارف المجّانيّة بمتناول الجميع وبسهولة، والثّقافة في كلّ زاوية من الشّوارع، والرّياضة للجميع. كان الإيقاع بطيئًا؛ وثمّة الكثير من الوقت للتّفكير والتّعلّم والتّحليل، ولكنّها كانت أيضًا ذروة الحرب الباردة.

كنّا شبّانًا متمرّدين يسهل التّلاعب بهم. لم نكن راضين أبدًا عمّا أُعطي لنا. لقد أخذنا كلّ شيء كأمر مسلّم به. كنّا نلتصق بأجهزة استقبال الراديو، في اللّيل، لنستمع إلى إذاعة بي بي سي، وصوت أمريكا، وراديو أوروبا الحرّة وخدمات البثّ الأخرى التي تهدف إلى تشويه سمعة الاشتراكيّة. وأتذكّر حينها كيف قامت المجمّعات الصّناعيّة الاشتراكية التّشيكيّة ببناء مصانع كاملة، من مصانع الحديد إلى مصانع السكّر، في آسيا والشّرق الأوسط وأفريقيا من منطلق التّضامن. لكنّنا لم نكن نرى أيّ مدعاةٍ للفخر في ذلك، لأنّ أجهزة الدّعاية الغربيّة كانت تسخر ببساطة من مثل تلك المشاريع.

كانوا يعرفون، وما زالوا يعرفون إلى اليوم، كيفيّة التّلاعب بأدمغة الشّباب. في لحظةٍ ما، تحوّلنا إلى شبابٍ متشائم، ننتقد كلّ شيء في بلادنا، من دون مقارنة، حتّى من دون القليل من الموضوعيّة. في ذلك الوقت، أضحت أكياس التسوّق البلاستيكية الغربيّة رمزًا للمكانة الاجتماعيّة!! تعرفونها؛ هذه الأكياس التي نجدها في بعض المتاجر أو المخازن الكبرى الرّخيصة.

عندما أفكّر في الأمر، بعد بضعة عقودٍ، لا أكاد أصدّق ذلك: شباب وشابّات متعلّمين، يسيرون بفخرٍ في الشّوارع، ويعرضون أكياس التّسوّق البلاستيكيّة الرّخيصة التي دفعوا مقابلها أموالًا كبيرة؛ لأنّها آتية من الغرب! لأنّها ترمز إلى النّزعة الاستهلاكيّة! لأنّه قيل لنا أنّ النّزعة الاستهلاكيّة أمر جيّد!

قيل لنا إنّه يجب أن نرغب في الحرّيّة؛ الحرّيّة على الطّريقة الغربيّة. قيل لنا إنّه يجب علينا (النّضال من أجل الحرّيّة). من نواحٍ كثيرة، كنّا أكثر حرّيّةً من الغرب. أدركت هذا عندما وصلت إلى نيويورك، ورأيت مدى ضعف تعليم الأطفال الذين في عمري، ومدى سطحيّة معرفتهم بالعالم. كما كان ثمّة القليل من الثّقافة في مدن أميركا الشّماليّة متوسّطة الحجم، ونسبة كبيرة من الأمّيّة. كنّا نريد الجينز ونطالب به من العلامات التّجاريّة المعروفة، كنّا نرغب بوجود الأسطوانات الموسيقيّة الغربيّة الإنتاج؛ لم يكن الأمر يتعلّق بالجوهر ولا بالرّسالة. كان العمى؛ لقد أعمتنا الدّعاية الغربيّة...»[1].

1- الفيلسوف والرّوائي التّشيكيّ/ الأميركيّ أندريه فليتشك، توفّي في العام 2020.